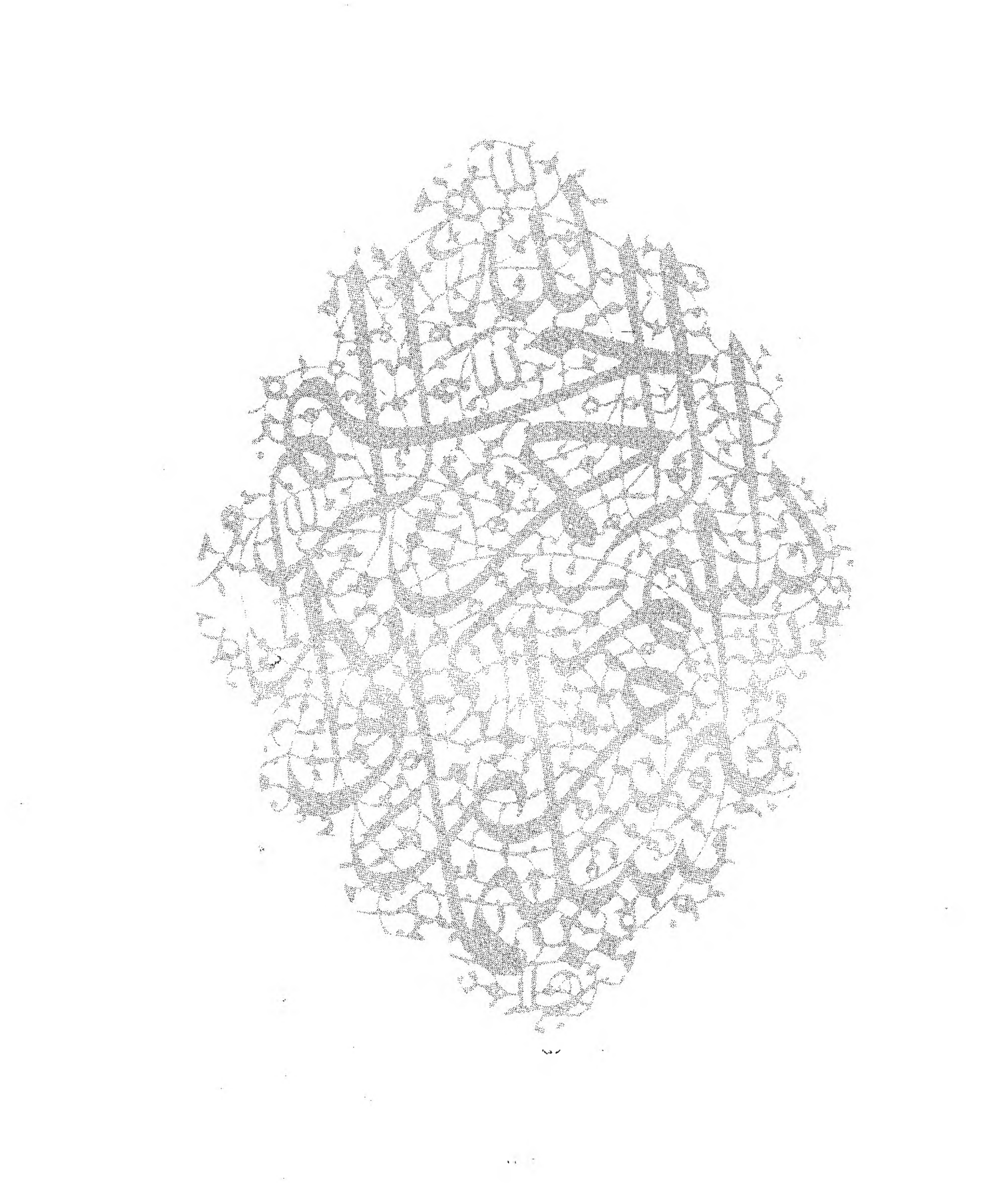
٩

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات



الفصل الأول

معنى القيامة

موضوع هذا الكتاب والكتب القادمة من (معجزة القرآن) سيكون عن يوم القيامة .. وقد يتساءل القارىء : لماذا اخترنا بالذات موضوع يوم القيامة ، مع انه يدخل فى عالم الغيب .. نقول : إن الأساس فى الايمان هو الايمان بالآخرة .. وبأن هناك حسابا .. وبأن الله سبحانه وتعالى سيستدعينا يوم القيامة ليحاسبنا عما فعلناه فى الدنيا .. والدنيا هى دار الاختبار .. والآخرة هى موعد الجزاء .. والذين يوقنون إنهم سيلاقون الله يوم القيامة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب .. ولو أن كل إنسان تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا .. ذلك لأن كلا منا سيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى .. ولكن الناس نسوا يوم الحساب ، وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهى أنفسهم ، ويرتكبون المحرمات .. ويعتدون على الحرمات .. ويأخذون المال الحرام .. ناسين أو متناسين أن هناك يوما قادما رهيبا يجعل الولدان شيبا .

ولعل هذا الكتاب ، والكتب القادمة ، تكون تذكرة لهؤلاء .. ولعلهم إذا قرأوه استيقظت الضمائر ، وأحسن الناس بهول ما يفعلون .

هذه مقدمة قصيرة كان لابد منها لايضاح الهدف الذى نسعى إليه .. ذلك أن أمور الغيب دائما هى الباب الذى يدخل منه الشيطان ، سواء كان من شياطين الانس ، أو من شياطين الجن .. يدخل منه إلى النفوس الضعيفة .. لماذا ؟ لأننا لا نرى الغيب . ومادمنا لا نراه فهو محجوب عنا .. ذلك أن الايمان أساسا هو إيمان

بالغيب .. أو إيمان بما هو غيب .. ذلك أنك إذا رأيت شيئا فلا تقول إنك تؤمن به .. لأنك تراه رأى العين .. رؤية يقين .. والايمان ليس مطلوبا فى الحسيات والمشاهدات .. ولكنه مطلوب فى الغيب .. فيما هو غيب عنا .

ولقد أوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الايمان فى بداية كتابه الكريم وفى أول سورة البقرة .. إذ يقول تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾

إذن فالايمان بالغيب واليقين واليوم الآخر هما من أهم علامات الايمان .. ذلك أن اليقين بالآخرة قضية هامة جدا ، تحكم السلوك الانسانى فى الدنيا ، وتردع كل من تسول له نفسه أن يغتر بسلطان أو بقوة أو بنفوذ .. فيطلق لنفسه شهواتها ، ويعتدى على حقوق الناس .. دون أن يكون هناك وازع .. ولكنه إذا عرف يقينا أنه سيقف بين يدى الله ، فإن ذلك سيكون رادعا قويا لشهوات نفسه ولظلم غيره .. فأنت تخشى الله سبحانه وتعالى إذا كنت تؤمن

بالآخرة .. فإذا مددت يدك لتسرق فتذكر أنك ملاق الله ، وأنه سيحاسبك فتمتنع عن السرقة ، وإذا أردت أن تأكل حقوق الناس بالباطل ، وتذكرت أنك ستلاقى الله ارتعدت نفسك وابتعدت عن ظلم الناس ، وأكل حقوقهم .

وهكذا كل شىء فى الدنيا مادمت على يقين بأنك ستلاقى الله يوم القيامة . فإنك تتبع السلوك الايمانى . خوفا من عذاب الله .. وطمعا فى رضاه وجنته .

عين اليقين

هناك علم يقين .. وعين يقين .. العلم الذى تأخذه عن الله سبحانه وتعالى لابد أن يكون علم يقين .. لأنه صادر عن الله .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال .. فالمؤمن يوقن أن ذلك سيحدث حتما . وكأنه يراه أمامه .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة التكاثر ..

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

فإذا كانت عين اليقين هى المشاهدة كما سيحدث فى الآخرة عندما نرى جهنم . . فإنه لابد أن يكون فى قلوبنا علم اليقين . . لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قد قال فهى موجودة كأننا نراها .

وأساس السلوك البشرى فى الدنيا هو الايمان باليوم الآخر . . فإذا لم يكن إيمانك بهذا اليوم إيمان يقين ، أى لا يدخل إليه الشك أبدا . . تكون قد اهتززت ، ويستطيع هنا أى شيطان أن يدخل إلى قلبك ليوهمك أن كل حديث عن الغيب هو غير صحيح ، أو غير واقع ، وحينئذ يتغير السلوك الايمانى كله .

فمادام ليس هناك حساب فمن تخشى ؟ . . وممن تخاف ؟ . . ومن الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه إلا إيمانك بالآخرة والحساب . . ومن الذى يوقفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل ، وتبغى فى الأرض ، وتغرك قوتك . . من الذى يقول لك : قف مكانك . . هو الايمان بالآخرة ، لأنك فى هذه الحالة ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك . . وانك إذا كنت قويا جبارا فى الأرض فستكون ضعيفا ذليلا فى الآخرة ، لا ناصر لك ، ولا معين أمام الله .

إذن لولا الايمان بالآخرة لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش . . الضعيف يفتك بالقوى . . ويعتدى القادر على غير القادر . . يضيع الحق . . والعجيب أن المؤمن والكافر يخشيان حساب الآخرة . . ولعل التساؤل يكون كيف لإنسان لا يؤمن

بالآخرة أن يخشاها . .

الكافر حقيقة لا يؤمن بالآخرة . . ولكن الموت الذى يراه كل يوم فى حياة غيره يملأ حياته هو بالرعب والفزع ، وينغص عليه عيشته ، وهو يرى الموت كل يوم فى حياة ألوف غيره . . بل فى حياة أقرب الناس إليه ، والسؤال يلح عليه دائما : إلى أين ؟ . . إلى أين ؟ يحاول أن يأتى بالدليل تلو الدليل ولو زيفا . . ولو تضليلا . . يحاول أن يقنع نفسه أن لا شىء بعد الموت ، حتى يستطيع بهذه الفرية أن يهون على نفسه ارتكاب المعاصى . . وهو يبرر لنفسه دائما ما يفعله . . السارق يقنع نفسه بأنه يأخذ حقه من المجتمع بيده . . والمعتدى على حقوق الآخرين يبرر ذلك بأن هذا هو حقه . . والمهم أن الايمان الفطرى فى كل نفس يؤرق صاحبها ، ويحاول أن يجد تبريرا لكل المعاصى التى يرتكبها . . ما من حاكم ظالم إلا أقنع نفسه بأنه مصلح اجتماعى . . وما من آخذ للمال الحرام إلا زين لنفسه أن هذا جهده وماله .

منهج الحياة

نبدأ بعد ذلك فى بيان منهج الحياة ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أعد هذا المنهج لاسعاد البشر فى الأرض . . وكيف أن البشر أفسدوه بأهوائهم ومخاوفهم ممن هم دون الله . . الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال قدرته وحده . . فلا أحد يستطيع أن يقول أو يدعى مهما بلغ من القدرة والقوة انه شارك الله سبحانه تنزه وتعالى فى

الخلق . . فقضية الخلق بالنسبة لله وحده هى قضية محسومة لا جدال فيها . . فالله خلق السموات والأرض والجبال والبحار والأنهار والزرع والنبات والحيوان والانسان والجن والملائكة . . والله أخبرنا أنه هو الذى خلق ولم يستطع ولن يستطيع أى ممن خلق الله أن يدعى أنه خلق هذا الكون . . ومن هنا فالقضية محسومة لله سبحانه وتعالى وحده .

وسخر الله سبحانه وتعالى كل ما فى الكون لخدمة الانسان . . فالشمس تشرق لتحفظ الحياة فى الكون . . وهى أقوى من الانسان ملايين المرات . . ولو اقتربت من الكون بضعة كيلو مترات لاحترق الكون كله . . ولو ابتعدت عن الكون بضعة كيلو مترات لتجمد الكون كله . . ولكنها مسخرة من الله سبحانه وتعالى لتخدم الانسان . . والرياح تعطى الانسان الهواء اللازم لحياته . . ولو ذهبت ما بقيت الحياة . . ولو استخدمت قوتها لدمرت الكون كله . . كذلك البحار تستطيع أن تغرق الأرض فى ثوان معدودة . ولكنها مسخرة لخدمة الانسان .

إذن كل قوى الكون ، بما فيها من جماد ونبات وحيوان ، مسخرة لخدمة الانسان . . وهذا التسخير ليس ذاتيا . . لأن الشمس لا تستطيع أن تقول أنا سأشرق اليوم واحتجب غدا . . لأنها مسخرة بأمر ربها لا تملك الاختيار .

ارتقاء الأجناس

كل جنس من أجناس الكون هو مخلوق من الله سبحانه وتعالى بذاتية معينة وقوانين محددة . وفيه إرتقاءات . . ولكن لا يستطيع أى جنس أن يرتقى إلى صفات الجنس الآخر . . وإنما يقف عند حدود هذه الصفات . . فالجماد آخر إرتقاءاته هو النمو . وهذه أولى خصائص النبات . . فنجد الشعب المرجانية لها خاصية النمو ، ولكنها تقف عند ذلك . . ولا تصل إلى خاصية التنفس مثلا الموجودة فى النبات . . فالنبات له خاصية النمو والتنفس وإعطاء الثمار . . ويصل إلى أول مرتبة من مراتب الحيوان وهى الحس . . فتجد عددا من النباتات إذا لمستها انفعلت لك ـ كالست المستحية ـ كما يطلقون عليها إذا لمستها ضمت أوراقها . . وبعض النباتات النادرة فى الغابات الاستوائية إذا لمسها الانسان أمسكت به ، ولكنها لا تستطيع أن ترقى إلى خاصية الحيوان . . وهى الحركة التى هى أولى مراتب الحيوان . . والحيوان يملك الحركة والحس ، وله خواصه .

وأعلى مراتب الحيوان هى القردة . أولئك أقرب الأجناس الحيوانية إلى الانسان ، ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى مرتبة العقل . . فلم نسمع عن مجموعة من القردة عقدت اجتماعا لتبحث كيف ترتقى بحياتها . . ولم نسمع عن أى نوع من الحيوان يستطيع أن يرث الحضارة عن بنى جنسه ويرتقى بها ليضع التقدم فى حياته . . قد يستطيع الانسان أن يدرب حيوانا على عدد من الأعمال ، ولكن هذا

تدريب فردى بموهبة الانسان . . فلا يستطيع قرد مدرب أن يدرب ابنه ، ولا يولد قرد مدرب يرث صفات أبيه التى اكتسبها بالتدريب .

والانسان هو خليفة الله فى الأرض . أعطاه العقل ليميز بين الأشياء ويرث الحضارات . . ويبدأ كل جيل بما انتهى إليه الجيل الذى قبله ويضيف إليه ، والعقل البشرى يستطيع أن يرث الحضارة ويبدأ من حيث انتهى الذين سبقوه ، ويضيف إليها . . وهذه ميزة الانسان وحده .

والله سبحانه وتعالى خلق الانسان ، وسخر له هذا الكون كله ، وجعل فى الكون آيات بينات يستطيع العقل البشرى أن يصل إليها بسهولة . . فكل ما فى الكون من خلق واعجاز هو آية من آيات الله تلفتنا إلى عظمة الخالق وقدرته . . ونحن حين نتدبر هذا الكون بنظامه الدقيق الذى لا يختل ثانية واحدة . . وبعظمة الخلق فيه . . وبالنعم التى تملؤه ، نجد اننا نصل إلى حقيقة هامة . . وهى انه لابد أن يكون لهذا الكون خالق . . قوة هائلة خارقة معجزة هى التى صنعت لنا كل هذا . . فنحن لم نصنعه لأنفسنا .

الجسد .. والارادة

حين نتدبر فى خلقنا . . وفى الجسد البشرى الذى تعمل معظم أعضائه بدون إرادتنا وبدون سيطرتنا عليها . . وبدون حتى إحساسنا

بعملها . . نحس أنه لابد أنها تعمل بإرادة خالقنا . . فالقلب يدق ، ونحن لا ندرى به ، وهو غير خاضع لنا . . فالقلب ينبض بدون إرادتنا وبدون أن نحس به ، ولا نستطيع أن نقول له : توقف عن النبض فيتوقف . . ولا أن نعطيه ساعات لا ينبض فيها ليستريح . . والرئتان تقومان بعملهما فى تنقية الدم ، واخراج الهواء الفاسد ، واستقبال الهواء النقى ، ونحن لا ندرى عن هذا شيئا ، ولا نستطيع أن نصدر أمرا إلى الهواء بألا يدخل ، أو إلى الرئتين لتتوقفا عن العمل ، بل اننا حينما نصل إلى المعلومات الدقيقة عما يحدث فى الرئتين نذهل مما يحدث فى أجسادنا ، ونحن لا ندرى . . وكذلك المعدة والكبد والأمعاء . . كلها تؤدى وظائفها بدون تدخل منا ، أو خضوع لارادتنا .

والحواس عندنا تقول لنا : هذا حلو المذاق ، وهذا مر . . وهذا بارد ، وهذا حار ، وتؤدى ملايين المهمات بدون أن نعرف عنها شيئا ، وان كنا نستفيد بها .

بل إن الأشياء الظاهرة التى تخضع لقدراتنا هى مسخرة لخدمتنا من الله سبحانه وتعالى . . فالقدم تمشى بأمر صاحبها ظاهريا . . ولكنها فى الحقيقة تتحرك بأمر الله . . ولو كان تحركها من ذاتنا ما وجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشى ، لأنه مشلول ، والعين تبصر بأمر الله ، وان كانت تخضع لنا ظاهريا . . ولو كانت تبصر بقوة ذاتية منا ما وجد من له عينان ولا يبصر . . وكذلك كل الحواس الأخرى .

إذن فنحن نستخدم عقولنا لتوصلنا إلى أن لهذا الكون ولنا خالقا أوجد كل هذه النعم وأوجدنا . . ولكن هذه العقول لا تقول لنا شيئا عن الخالق . . ولا ماهو اسمه . . ولا ماذا نفعل لنشكره على نعمه علينا . . ولا ما هى مراداته منا . . ومن هنا كان لابد ، لكى يكتمل المنهج ، أن يرسل الله سبحانه وتعالى الرسل ليبينوا لنا ماذا يريد الله منا . . وكيف نشكره على نعمه . . ولذلك جاءت الرسل مبلغة عن الله لتقول لنا : إن خالق هذا الكون هو الله . . وانه قد أعد لنا جنة عرضها السموات والأرض ، ينعم فيها من أطاعه . . ونارا يعذب فيها من عصاه . . وان الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا للانسان فى الحياة . . وهذا هو المنهج .

ولم يكن الله سبحانه وتعالى ، رحمة بنا ، ليضع لنا المنهج ، ثم يتركنا لنطبقه كل حسبما يرى . . ونفسره كل على قدر اجتهاداته . ولذلك اختار رسله من البشر . . من جنسنا حتى لا نقول : يارب إن هذا المنهج يعجز عنه البشر . . فلو أن الله أرسل ملكا رسولا ، أو خلقنا من غير جنس الانسان ، لقلنا : يارب لا نستطيع لأن هذا الرسول ليس من جنسنا . . إنه يملك قدرات أكبر . . ولكن كون الرسول بشرا أعطانا التطبيق العملى لمنهج الله بقدرة البشر . . تطبيق الرسالة محروس بمنهج السماء . . يرينا كيف يريد الله سبحانه وتعالى أن يطبق منهجه فى الأرض ، وحتى يكون التطبيق أمامنا عمليا .

ولقد أوكل الله سبحانه وتعالى للانسان أن يحافظ على المنهج . . ولكن الناس حرفوا منهج الله . . فأدخلوا فيه أشياء لم يطلبها ، ولكنها

تخدم أهواءهم البشرية ، وحرفوه وأضافوا إليه . . لذلك جاء القرآن الكريم ، منهج الله وخاتم الرسالات ، ليكون محفوظا بقدرة الله ، لا بقدرات البشر . . فلا يدخل إلى القرآن تغيير وتبديل بشرى . . ولا ينسى منه حرف ، ولا يضاف إليه حرف . . بل يبقى خالدا إلى يوم القيامة .

معنى منهج الله

ماذا آراد الله سبحانه وتعالى بالمنهج ؟ . . أراد أن يحكم به أهواء النفس . . فكل ماليس فيه هوى بشرى تركه الله سبحانه وتعالى ليستنبطه الانسان من الكون بدون أن يتدخل فيه منهج الله بافعل ولا تفعل . . فالعلوم الصماء التى مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أن يحيطها بقيم أخلاقية . . فهذه لا خلاف عليها بين البشر . . فعلوم الكيمياء مثلا أو الطبيعة أو الفلك أو غيرها . . نجد العالم كله فيها يتعاون مع بعضه البعض . . بل ان كل دولة تحاول أن تتجسس على الدولة المتقدمة فى العلوم لتأخذ منها . . والجميع يتنافس فى الوصول إلى أكبر درجات العلم المادى . . وهنا لا تتدخل الأهواء ، لأنه مادامت التجارب معملية ، فإن الأهواء لا يمكن أن تتدخل فيها .

ولكن هناك أمور الحياة ، والتى يتدخل فيها هوى النفس . . فبينما

مثلا نرى أمريكا والاتحاد السوفيتى يتسابقان إلى نقل العلوم عن بعضهما البعض . . نجد أننا إذا وصلنا إلى نظريات الحكم . . فكل دولة منهما تحاول أن تمنع نظريات الدولة الأخرى من الوصول إليها . . فأمريكا إذا وجدت فكرا شيوعيا قاومته . . ووضعت من يعتنقونه فى السجون ، وربما حكمت عليهم بالموت . . والاتحاد السوفيتى إذا وجد من يدعو إلى النظام الرأسمالى شنقه ! . . وهكذا نجد أن الصراع فى الدنيا ليس على الحقائق العلمية . . فكل دولة تعطى علماءها الحرية كاملة مهما كانوا ليسعوا لكشف آيات الله فى الكون . . ولكن عندما يدخل هوى النفس ، يبدأ الصراع البشرى حتى بين أبناء الوطن الواحد . . وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة وتقوم الحروب الأهلية ، ويقتل الناس بعضهم البعض ، ويحدث الفساد فى الأرض من قتل وتخريب وتدمير . . وكم من صراعات تدور الآن فى دول العالم كله بين أهواء الانسان . . وكم من حروب أهلية تشتعل بين اليسار واليمين . وبين الشيوعية والرأسمالية . . وبين الأهواء التى يريد كل انسان أن يحققها ليسود ويحكم . . كل هذه الصراعات التى تدمر ولا تعمر . . والتى تريد أن تحقق نفعا ذاتيا لعدد من الأشخاص على حساب غيرهم ، هى آفة الشقاء فى الدنيا .

ولذلك جاء منهج الله . . يحمى الحق . . ويعطى كل انسان حقوقه بلا تمييز . . الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يضع منهجا عادلا بين خلقه جميعا . . فهو خالقهم ، وهم جميعا عبيد له . . وهو سبحانه وتعالى لا يحابى أحدا على أحد . . ولا يميز شخصا

على شخص . . لأنهم جميعا أمامه خلق متساوون . . وهو لا يطمع فيما فى أيدى أى منهم . . فهو لا يطمع فى مال أحد ، لأنه لا يحتاج إلى المال . . ولا يطمع فى قوة أحد ، لأنه هو القوى العزيز . . ولا يطمع فيما يملكه أحد ، لأنه هو خالق هذا الكون ، وموجد كل هذه النعم . . يعطيها لمن يشاء ، وينزعها ممن يشاء . . والانسان حين يضع منهجا إنما يضعه لخدمة مصالحه . . الرأسمالى يضع المنهج الذى يخدم حقوق أصحاب الأموال ، ويعطيهم وحدهم الميزات . . والشيوعى يضع ما يخدم اللجنة المركزية ، ويعطيها كل السلطات . . والدكتاتور يضع منهجا يعطيه وحده كل الحقوق ولا حق لغيره . . ولكن الله سبحانه وتعالى يضع المنهج الذى يحقق العدالة بين الناس جميعا ، لأنه غنى عن كل خلقه .

إذن فمنهج السماء هو الذى يحقق العدل على الأرض . . ولا شىء غيره . . وكل ما يقال عن فصل الدين عن الدولة . . أو فصل الدين عن نشاطات الحياة مرفوض . . لأن كل هذه النشاطات ، بما فيها الحكم ، تدخل فيها الأهواء . . ويظلم فيها الناس . . وتحدث منها الصراعات . . ولذلك فإنه لابد أن يحكمها قانون إلهى هو فوق هذه الصراعات كلها . . يحمى حق الضعيف قبل القوى . . ويحفظ حق المظلوم قبل الظالم . . ويضع قواعد العدل بين الناس .

وحتى لا تقتل الصراعات البشر على مطامع الدنيا وأهوائها . . بين الله سبحانه وتعالى أن هذه الحياة الدنيا هى حياة مؤقتة . مهما طال

فيها العمر فإنه قصير . . ومهما امتدت فيها الأيام فإنه لابد لها من نهاية . . وطلب منا الله ألا نجعل هوى النفس ، وشهوة النفوذ ، وسلطان المال . . وحب التملك يقضى علينا . . ويهلك الناس ، ويهلك الزرع ، ويهلك الخير . . يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنفال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

الأنفال (٢٤)

وهنا قد يتساءل بعض الناس عن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ والرسول يدعو للآخرة وللجنة ، فهل هذه الدنيا ليست هى الحياة . . نقول إن الله سبحانه وتعالى يريد للانسان الحياة الخالدة فى جنة النعيم ولا يريده أن يتخذ من الدنيا هدفا . . لأن الحياة الدنيا تقوم على الأسباب ، ولذلك يعانى فيها الانسان . . فى حين أن الحياة الآخرة نعيم مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب . . والحياة الدنيا قصيرة وزائلة ، وهى امتحان للانسان واختبار لطاعته لله سبحانه وتعالى . . لذلك لا يريد الله سبحانه وتعالى من خلقه أن يكون هدفهم هو الحياة الدنيا . . وأن ينسوا الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن كل ما فى الدنيا زائل . . وأن الانسان مهما علا فيها ومهما بلغ ، فهو إما أن تزول عنه النعمة . . تنزع منه . . وإما أن يزول هو عن النعمة بالموت . .

ولذلك فإن الحياة الحقيقة التى فيها الخلود . . والتى فيها النعيم الدائم هى الحياة الآخرة التى لابد أن نلتفت إليها . . لأنها هى الحياة الحقيقية التى لا تزول . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

العنكبوت (٦٤)

ولذلك يريد الله أن يلفتنا إلى حياتنا الحقيقة ، وليس إلى الحياة المؤقتة التى نعيشها فى الدنيا . . فإذا طبقنا منهج الله فى الدنيا ، حصلنا على الحياة المليئة بنعم الله فى الآخرة .

وليس معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نترك الحياة الدنيا للكافرين . . إن هذا خطأ كبير يقع فيه عدد من الناس . . والذى حدث فى الفترة الأخيرة أن المسلمين تركوا الأخذ بأسباب الدنيا ، والعمل على اكتشاف آيات الله فى الأرض ، وركنوا إلى عدم العمل ، وإلى خلافات ونزاعات لا تفيد ولا تجدى . . وأقصى أمنية للكافر أن يترك المؤمنون شئون الدنيا والعمل فيها ويقتصروا على العبادات فقط . . وتزول عنهم قوتهم ولا تعطيهم الأسباب ، ويصبحوا فقراء اذلاء ضعفاء لا يقدرون على حماية أنفسهم ، ولا يحققون من القوة والقدرة ما يجعلهم يسودون الأرض .

وإذا فعلنا ذلك . . فإننا تكون قد أخطأنا فى فهم الاسلام . . ذلك أن الاسلام يسيطر على حركة الحياة كلها فى البيت والمصنع

والطريق والعمل . . وتأملوا قول الله سبحانه وتعالى فى سورة الجمعة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الجمعة (٩ ـ ١٠)

ويلاحظ فى هذه الآية أن الأمر بالسعى فى الأرض مساو تماما للأوامر بالعبادة . . فلا يترك المسلمون السعى ويدعون أن الله قد أمر بالعبادة فقط . . فمنهج الاسلام يطالبنا أن نأخذ بالأسباب ، وتجتهد فى العمل ، ونسعى فى الأرض بنفس القوة التى نأخذ بها العبادات .

ولقد جاء التشكيك فى الدين الاسلامى فى الفترة الأخيرة من أن المسلمين تركوا السعى فى الأرض فتأخروا وتخلفوا . . ثم بدأوا بعد ذلك يتساءلون : ما هو السبب . . وهنا برز دور الكفار فى محاولة لاقناع الشباب المسلم بأن سبب تخلفهم يكمن فى الدين الاسلامى وبدأ بعض الشباب يستمعون إليهم .

ولقد ساد الاسلام الأرض ألف سنة كانت فيها الأمة الاسلامية هى منارة التقدم والعلم والحضارة . . حتى حينما أهدى هارون

الرشيد ساعة تعمل بالمياه إلى ملك فرنسا . . أعتقد علماء فرنسا أن هناك شيطانا داخل الساعة يحركها .

ما هو العمل .. للآخرة ؟

إذا كان الدين الاسلامى يطالبنا بالعمل من أجل الآخرة ، فليست الصلاة وحدها هى العمل من أجل الآخرة . . ولكن السعى فى الأرض هو عمل من أجل الآخرة . . وهو جهاد فى سبيل الله . . والعمل فى الاسلام عبادة . . وسعى الانسان على رزقه ورزق أولاده هو نوع من الجهاد حث عليه الاسلام . . بل إن الله أمرنا بأن نتحرك فى الأرض ليس على قدر ما نحتاج فقط ، ولكن بما يزيد على حاجتنا . . وذلك حتى تتسع حركتنا للفقير والمحتاج والضعيف الذى لا يقدر على الكسب . . والصغير الذى يحتاج لمن يعوله ، ولذلك فرضت الزكاة . . ولذلك حث القرآن على الصدقة والانفاق حتى لا يوجد فى المجتمع الاسلامى فقير ولا عاجز عن الكسب إلا ويأتيه من عمل غيره ما يكفيه . وبهذه الطريقة عالج الاسلام الفقر .

لذلك يجب ألا نأخذ الدين على أنه فى المسجد فقط . . أو إنه صلاة فقط . . لأن الدين الاسلامى يشمل حركة الحياة كلها .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

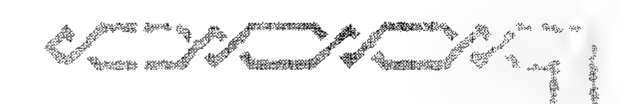
﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

الأنفال (٢٤)

أى اعلموا أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يحول بينكم وبين ما تشتهيه قلوبكم إذا اتخذتم طريق المعصية سبيلا . فلا تعتقدوا أنكم بمعصية الله تستطيعون أن تصلوا إلى ما تريدون . . بل إن الله سبحانه وتعالى قد يحول بينكم وبين ما تريدون ، فلا تحققوا شيئا مما تتمنون . . وتكون النتيجة أنكم خسرتم الدنيا والآخرة . . ولعل هذا ما نراه كل يوم حولنا . . فكم من إنسان أغضب الله ليرضى صاحب نفوذ ، أو صاحب سلطان ، أو ليصل إلى منصب أو جاه أو مال . . ثم انقلب عليه صاحب السلطان هذا فبطش به . . أو لم يستطع أن يصل إلى المنصب أو الجاه أو المال إلا بالمعصية . . بل ارتكبها ولم تحقق له شيئا . . وإذا نظرت حولك فستجد الكثيرين ممن حاولوا أن يحققواهدفا دنيويا بمعصية الله . . وشاءت إرادة الله أن ينقلب عليهم ما فعلوه وبالا . . وكم من إنسان ارتكب المعصية ، وأصبح فى قمة النفوذ والمال والسلطان . . وبعد يوم وليلة تغير كل شىء حتى لم يجد ما يكفيه أو يستره . .

إذن فمنهج الله جاء ليحكم حركة الحياة فى الأرض ، ويقيم العدل بين الناس . . ومع المنهج جاء التحذير بأن من يريد الحياة الحقيقية فليرع الله فى الدنيا ليصل إلى الحياة الخالدة فى الآخرة منعما مكرما . . وإذا سيطر منهج الله على الحياة فى الكون اعتدلت وامتلأت الدنيا خيرا ، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ



الأعراف (٩٦)

ولو تصادمت الأهواء وتصارعت وبعدت عن منهج الله . . لانتشر الشقاء والخراب فى الأرض . . ومن العجيب أننا نجد كثيرا من الناس ، بل والدول تنفق ما أعطاها الله من خير على الأهواء والصراعات . . ليضيع الخير كله ، وينقلب شرا ووبالا على الجميع .

وحين يبتعد الناس عن منهج الله ويتبعون أهواءهم ، وتفسد الحياة فى الأرض ، وتنسى تعليم الله . . يستدعى الله خلقه سبحانه وتعالى إلى يوم الحساب ليريهم الحق والحقيقة . وليعلموا علم اليقين ما هو الزيف وما هو الحق . . حين تصطدم حركة الحياة وتضيع الحقائق ويحكم الزيف . . والله يريد خلافة مستقرة فى الأرض ، حينئذ من الطبيعى أن نعود إلى الله سبحانه وتعالى .

وخلاصة الأمر أن الناس ينسلخون من دينهم ، ويتبعون أهواءهم ولم يعد الدين حاكما لتصرفات البشر ، ولا لحركة الحياة . . حينئذ تقوم الساعة .

هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى أن يستنفد العقل البشرى فكره . . ويستنفد تجربته . . ويستنفد طموحاته فى اكتشاف أسرار الحياة كلها . . وحين يغتر الانسان بالعلم الذى وصل إليه ، وبالامكانات التى حققها أو التكنولوجيا التى يقولون عنها . . حين

يصل غرور العقل البشرى بأنه هو الذى يتصرف فى الحياة وفق ما يريد . . وينسى الناس الله ، وقدرة الله ، ويعتقدون أن الدنيا قد خضعت لهم بعقولهم هم . . حينئذ يستدعيهم الله سبحانه وتعالى إليه . . ليعلموا أن القوة والقدرة لله وحده . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

يونس (٢٤)

أسماء يوم القيامة

القرآن سمى يوم القيامة يوم الدين . . وسماه يوم الوعيد . . وسماه يوم الفصل . . وسماه الصاخة . . وسماه الوعد الحق . . وسماه الواقعة . . وسماه الساعة . . وسماه يوم الآزفة . . وأطلق عليه مسميات أخرى . . وكل هذه مسميات لمظاهر هذا اليوم ، وما سيحدث فيه . . ما هو اليوم الآخر ؟ . . هو انتهاء أمد الدنيا . . وابتداء أمد الآخرة . وآخر يوم من أيام الدنيا ولذلك سماه الله اليوم الآخر . . وليس معنى ذلك أننا سننتظر إلى آخر أيام الدنيا أو انقضاء عمرها لنرى لمحات مما سيحدث فى الآخرة . . بل إن كل إنسان فينا إذا كانت آخر أيامه من الدنيا يرى مقدمات الغيب . . بل إنه يرى

هذه المقدمات وهو يحتضر . . وهذا ما سنعرض إليه فى الفصول القادمة . . ولكن الذى أريد أن أقوله : إن لكل مرحلة من مراحل الحياة قوانينها . . فحياة اليقظة فى الكون لها قوانينها . . وحياة النوم فى الكون لها قوانينها . . وحياة البرزخ ، وهى ما بعد الموت إلى يوم القيامة لها قوانينها . . وحياة الخلود فى الآخرة لها قوانينها . . وكل قانون مختلف تماما فى كل مرحلة . . كما سنتحدث عن هذا تفصيلا .

ويوم القيامة هو اليوم الذى يفصل فيه بين الناس . . فلا يوجد عمل فى الآخرة . . ولكن يوجد فصل فيما فعله الناس فى دنياهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

الزلزلة (٧ - ٨)

ولا يحسب الانسان أنه مهما سيتقبل منه عمل فى يوم القيامة . . بل إن عمل الانسان ينقطع من ساعة الاحتضار . . فليس هناك عمل فى حياة البرزخ ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

المتحنة (١٣)

أى أن الذين ماتوا وهم كفار لا يقبل لهم عمل بعد الموت . ويوم الفصل معناه أنه لابد أن يحشر الناس جميعا ليفصل بينهم . . ولقد

استخدم الله سبحانه وتعالى يوم الجمع ، ويوم الحشر فى وصف يوم القيامة . . وبعض الناس يعتقد أن هذه مترادفات لفظية . . ولكن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى . . الذى لكل لفظ فيه وحرف فيه معنى دقيق . . ينبهنا إلى شىء جديد . . فيوم الجمع أن يجمع الناس جميعا فى صعيد واحد . . ولكن يوم الحشر مختلف تماما . . فكلمة الحشر يريد الله أن يعطينا بها إحساسا بضيق المكان . . ذلك أنك عندما تحشر شيئا فإنك فى العادة تحاول أن تدخل شيئا كبيرا فى مكان ضيق .

وإذا أردنا أن نقرب هذه الصورة إلى الأذهان . . فإننا نقول : تصور أى مكان من يوم أن خلق الله الأرض ومن عليها . . وتصور أنك أحصيت الخلق الذين تواردوا على هذا المكان ستجد أنهم عدد كبير جدا . . تصور بيتا كان فيه رجل وامرأة تزوجا وأنجبا أولادا . . والأولاد كبروا وتزوجوا وأنجبوا أولادا . . أى البيت الذى كان فيه اثنان واسع عليهما جدا . . فإذا بلغوا مائة أصبح المكان يضيق بهم . . فإذا بلغوا ألفا أصبحوا محشورين فى هذا المكان . . والله سبحانه وتعالى سيبعث الناس مرة واحدة ، وليس تباعا كما خلقهم . . وإذا أحصيت عدد من سكنوا بلدا من البلاد من أول مانشأت الحياة ، وأحصيت الذين ولدوا على أرض هذا البلد . . ثم ماتوا ودفنوا فيه من أول الخلق إلى يوم القيامة . . ثم بعثوا مرة واحدة . . ما هو الموقف ؟ . . إذن فالحيز سيصبح محشورا بالناس ، لأن الحياة التى نثرت فى هذا المكان فى أزمان مختلفة عادت لأصحابها

مرة واحدة .

كأن الناس سيحشرون حشرا مع بعضهم البعض يوم القيامة . . رقعة الأرض التى ضاقت بالأحياء الذين عمروها فى أزمان مختلفة سيحشر الناس فيها حشرا يوم القيامة . . كان قول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾

هود (١٠٣)

يعطينا معنى الجمع . . ولكنه لا يعطينا صورة هذاالجمع ، فيأتى يوم الحشر ليوضح الصورة الرهيبة التى سيكون عليها الناس يوم القيامة

ومن مظاهر هذا اليوم ، كما وصفه الله سبحانه وتعالى ، انه يوم الدين . . أى أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على منهجه ، وهل اتبعوه أم خالفوه . . أم نسوه . . أى أن هذا يوم لا ينفع الانسان إلا دينه .

وهو يوم التناد . . يوم نخرج جميعا كل واحد منا ينادى الله . . وهو يوم الآزفة . . أى يأزف علينا فجأة . . وهو يوم القيامة الذى فيه نقوم من قبورنا . . وهو يوم الجزاء ، أى يوم يعلن فيه نتيجة الامتحان الذى مر به الانسان فى الحياة الدنيا . . ولا ينفع فيه إلا اجتهاده فى طاعة الله فى الدنيا .

وهو يوم الصاخة . . التى تصخ الأسماع . . ويوم الطامة التى تطم الجميع . . ويوم القارعة . . التى تقرع الآذان فتنبهها من نومها العميق ويقوم الناس لرب العالمين .

وهكذا نرى أن كل اسم من أسماء يوم القيامة . . إنما يمثل ظاهرة من أسماء هذا اليوم .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى ختام الفصل الأول . . وقبل أن نتحدث عن علامات الساعة ، الذى تحقق منها ، والذى لم يتحقق . . لابد لنا من وقفة نتحدث فيها عن : لماذا وصف الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بأنه يوم ، مع أن الله لا زمن عنده . . وما معنى هذا الوصف ؟ . . كما نتحدث عن انتقال الانسان من آخر مراحل الدنيا إلى حياة البرزخ التى يبقى فيها حتى يوم البعث . . أو حتى يأتى يومالحساب .

وسنبدأ الحديث فى الفصل القادم عن الانتقال بين الموت والحياة . .

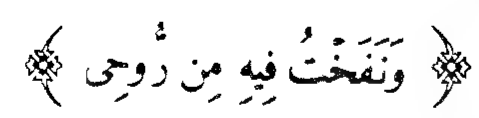


الفصل الثاني

نهاية الحياة

الله سبحانه وتعالى خلق الانسان من عناصر الأرض . . والتحليل العلمى فى الفترة الأخيرة أثبت أن جسد الانسان يحتوى على ثمانية عشر عنصرا ، هى العناصر الموجودة فى الأرض . . وهكذا توصل العلم أخيرا إلى ما كشف عنه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ، ثم نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه فدبت الحياة فى ذلك الجسد المخلوق من طين . . وتم خلق آدم ، ثم خلق الله حواء من آدم أو من ضلع منه ، وذلك تعرضنا له بالتفصيل فى الجزء الثامن من معجزة القرآن الذى صدر فى العام الماضى .

يقول الله سبحانه وتعالى :



(ص - ٧٢)

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(الاحزاب - ٧٢)

وهكذا فإن الانسان روحا ، وكانت مهمته أن حمله الله الأمانة فى الأرض . . فما الروح ؟ . . وما الأمانة ؟

الروح هى أمر من أمور الله . . وكل البحوث التى تجرى عن

الروح هى مجرد عبث . . والبحث عن الروح يشغل الانسان منذ بداية الحياة . . ذلك أنه سر الحياة الذى عجز البشر عن الوصول إليه عبر السنين . . ورغم أن الروح لا تدخل فى طاقة البحث العلمى فإن الانسان مازال يحاول أن يعرف عنها شيئا .

وقد قام عالم سويسرى فى الفترة الأخيرة بتجربة وضع فيها الانسان عندما يحتضر على ميزان . . ووجد أنه فى لحظة الوفاة يفقد جزءا يسيرا من وزنه . . فادعى أن هذا الوزن هو وزن الروح . . والبعض الآخر أنكر أن لها وزنا . . والكافرون ينكرون وجود الروح . ويسمونها الزمن أو الطبيعة . . وحيرة البشرية كلها سجلها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(الاسراء ـ ٨٥)

وهناك الروح ، وهناك النفس . . النفس هى التقاء الروح بالمادة أو امتزاج الروح بالمادة . . هذه هى النفس . . والتكيف من الله سبحانه وتعالى أو الأمانة التى حملها الانسان هى للنفس البشرية . . أى فترة الحياة الدنيا التى تلتقى فيها الروح بالجسد . . والله لا يكلف الروح وحدها شيئا . . قبل أن تدخل إلى الجسد ، أو بعد أن تخرج منه . . والله لا يكلف الجسد شيئا إذا خرجت منه الروح . . ولكن التكليف حين تلتقى الروح بالمادة فى الحياة الأرضية .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾

(الشمس - ٧ - ١٠)

أى أن الله سبحانه وتعالى بين طريق الايمان ، وطريق المعصية للنفس البشرية . . فبين لها ما يجب أن تفعل وما لا تفعل . . وأوضح لها الخطأ والصواب . . والتكليف الالهى هو فى فترة الحياة وحدها مصداقا لقول الله جل جلاله :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(يس - ٦٩ - ٧٠)

أى أن القرآن نزل للأحياء ليعملوا به فى فترة حياتهم الأرضية . .

ما هى الروح ؟

إذا أردنا أن نفهم كلمة الروح . . فإنها ذلك السر الالهى الذى يهب الحياة للمادة . . أو الذى تحيا به المادة . . أو هو إرادة الله لها أن تحيا . . فإذا سلب الله هذه الارادة انتهت الحياة بشكلها الدنيوى . . ولذلك يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة الدنيا

كأنها فترة قصيرة من الوقت فى رحلة الحياة الكبرى . . يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ، ثم يرحل . . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (مالى والدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم رحل وتركها) .

وحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح . . وممَّ تتكون ؟ وكيف تهب الحياة للجسد ؟ ثم تذهبها عنه . . وهنا قال الله سبحانه :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٨٥)

أى أن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبا عنا إلى يوم القيامة . . والله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى أن علمنا الأرضى الذى نظن أنه كثير لن يصل إلى سر الروح .

بل إن تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح ـ وهى تعيش فى جسد بشرى ـ يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم عنها شيئا . . كيف جاءت وكيف خرجت ؟ . . وفى أى مكان هى فى الجسم ؟ . . هل هى فى القدم التى تمشى ، أم فى القلب الذى ينبض . . أم فى الرئتين اللتين نتنفس بهما . . أم فى العقل الذى يعطى الاشارات كلها للجسم .

كل هذا عجز عن أن يحدده علماء الأرض الذين يجادلون فى الله بغير علم . . ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله . . أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله . . ويعلنون الكفر والالحاد .

الروح فى أجسادهم ، وهى معهم فى رحلتهم من المهد إلى اللحد . . أو من الميلاد إلى القبر . . ولكن أين هى الروح التى فى أجسادهم وأين مكانها .

الجواب طبعا أن أحدا لا يستطيع أن يحدد مكانها . . وتقول لهم : ما هو شكلها ؟ . . فيقفون صامتين بلا جواب . . فتقول لهم : هل هى موجودة ؟ فيقولون : نعم . لأنها تعطينا الحياة . . فتقول لهم : إذا كانت الروح . وهى موجودة وجودا يقينا فى أجسادكم ، وفى كل شىء حى . إذا كان هذا المخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى تستطيعون الاحاطة به . . ولكنكم ترون فى اثارة أنه يمنح الحياة للجسد . . فكيف تريدون رؤية الله ، وتجاهرون بأن عدم رؤية الله انكار لوجود الله سبحانه وتعالى .

ألا تكفى هذه التجربة التى هى فى أجسادكم ، والتى تعيش معكم ، لتبين لكم أنكم تفترون على الله ؟ وكان من الأجدر بكم ، وهذه الآية موجودة فى أجسادكم . . أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذى وضع فيكم هذا الاعجاز ، وتؤمنوا بوجود الله وبعظيم علمه وقدرته ؟

لماذا أخفى الله
سر الروح ؟

لكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية ؟

أولا : لأنه دليل قدرة . . دليل قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يضع فى الجسد البشرى ما يهبه الحياة دون أن يستطيع أحد من الناس معرفته . . وعندما نرى هذه القدرة نحس بعناية الله سبحانه وتعالى الذى وضع هذا السر فينا دون أن نستطيع اكتشافه .

وثانيا : أنه دليل وجود بلا رؤية . . فنحن نعرف يقينا أن الروح موجودة فى الجسد ، لأنها تعطيه الحياة . . فمادامت الحياة موجودة فالروح موجودة . . فإذا خرجت الروح من الجسد توقفت الحياة، وهذه بديهية وليست محتاجة إلى دليل . . وإنما هى توضح لنا بشكل يقينى دائم معنى الغيب . . وترد على الذين يقولون إن الغيب غير موجود ، لأنه محجوب عنا .

نقول لهؤلاء : إن الروح محجوبة عنا . فنحن لا نراها ، ولا نعرف شيئا عنها . . ولكنها موجودة ، بدليل أنهاتعطينا الحياة . . إذن لا نقول ما هو غيب عنا ليس موجودا .

وهناك دلائل أخرى على أن الغيب موجود . . منها الاكتشافات العلمية التى تتم . . فإننا نرى ميكروبا من الميكروبات ، أو كوكبا من الكواكب ، ويدخل فى علمنا البشرى . . فليس معنى ذلك أنه لم يكن

موجودا قبل أن نكتشفه . . بل معناه أنه كان موجودا ثم أتاح لنا الله سبحانه وتعالى قدرات مكنتنا من رؤيته . . ولكنه كان يباشر مهمته فى الحياة قبل أن نراه ، أو نعلم بوجوده .

وهكذا كل الاكتشافات العلمية الجديدة هى قوانين الله فى الأرض كانت تباشر مهمتها قبل أن نكتشفها . . بل معناه أن الله أراد أن يعلمنا بها . . فالغلاف الجوى لم نضع فيه نحن خاصية حمل الطائرات ، ولا نقل الأصوات والصور للاذاعة والتليفزيون . . ولكن هذه الخصائص كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها . . ولكنها كانت غيبا عنا ، ثم كشفها الله لنا .

ولكن إذا كانت هناك أشياء كثيرة فى الكون نستطيع أن نستدل بها على أن ما هو غيب عنا موجود . . فلماذا غيب الله علم الروح عنا ؟ لأن هذه الاكتشافات العلمية محتاجة إلى أن يدرس الناس ويتعلموا حتى يصلوا إلى فهم لها . . ولكن ذلك الذى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يستوعب مثل هذا العلم . . والله سبحانه وتعالى لا يفرق بين عباده ، بل يساوى بينهم جميعا . . وبما أن وجود الروح فى الجسد دليل لا يحتاج إلى تعلم . . بل هو شىء محس يرُى للناس ، كل الناس ويعرفه الجميع . . لذلك بقيت الروح لتكون دليلا للناس كلهم على أن ما هو فوق قدرة العقل . . أو مالا يحيط به العقل موجود . . حتى إذا دخل الشك أى نفس يكفى أن تضرب مثل الروح . . ليعلم الناس جميعا وبدون حاجة إلى تعلم وقراءة . . ان

ما لا يحيط به العقل موجود فى الكون . . بذلك يساوى الله بين خلقه فى الدليل الايمانى . . على أن ما هو غيب عنا ، وما هو فوق قدرة عقولنا ، موجود .

والسبب الثالث أن حقيقة الروح ، سواء علمت بها أو لم تعلم ، لا يفيدك ذلك شيئا فى حياتك الدنيا . . فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها . . فهى تعطيك الحياة والقدرة ، سواء علمت بها أو لم تعلم . . وفى ذلك يتساوى الإنسان الذى لم يقرأ سطرا فى حياته ، والانسان الذى بلغ مبلغا كبيرا من العلم . . فكلاهما ينتفع بالروح انتفاعا كاملا طوال رحلة حياته . . سواء علم سرها أو جهل ذلك السر .

إذن فأنت تنتفع بالروح التى تعطيك الحياة والحركة ، ولست محتاجا إلى أن تعرف سرها . . فهو بالنسبة لك جهل لا يضر .

على أننا يجب أن نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٨٥)

ماذا تعنى كلمة أمر بى . . القرآن الكريم يبين لنا ذلك فيقول :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس ـ الآية ٨٢)

إذن أمر الله هو إرادة الله سبحانه وتعالى للشىء أن ينتقل إلى حياة

البشر بكلمة « كن » . . وأن يخرج الشىء من علم القادر . وهو الله سبحانه وتعالى ، إلى علم غير القادر ليباشرمهمته فى الحياة .

ما هـى مهمـة الانسـان

نأتى بعد ذلك إلى مهمة الانسان فى الكون . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد كرم آدم تكريما عظيما . . وجعل الملائكة يسجدون له ، ثم حمله الأمانة .

ما الأمانة ؟ الأمانة هى شىء لا يقوم عليه دليل مادى مكتوب . . فإذا أتيت إلى شخص ، وأعطيته مبلغا من المال . . وأخذت منه إيصالا أو شيكا بالمبلغ لا يكون هذا أمانة ، ولكنه يكون دينا ، فإذا أعطيته هذا المبلغ وأشهدت عليه الناس ، فلا يكون هذا أمانة ، وإنما يكون دينا . . ولكن إذا أعطيته مالا أو شيئا آخر . . وتم ذلك بدون ورقة مكتوبة . . وبدون أن أشهد عليه الناس أكون قد أعطيته أمانة يستطيع أن ينكرها ، وأن يردها فى أى وقت شاء دون أن يكون لدى دليل مادى إذا أنكره .

والسلوك بالنسبة للأمانة ينقسم إلى ثلاثة ردود فعل :

رد الفعل الأول : أن يقبل الانسان الأمانة ، ويقول أعطها لى ، وهى فى الحفظ والصون إلى أن تأتى لتطلبها .

ورد الفعل الثانى : هو أن يخاف الانسان من نفسه ويقول : اعفنى

من هذه المهمة فأنا لا أستطيع أن أضمن نفسى ويدى ستمتد إليها لتبددها . . وحينئذ يكون قد رفض حمل الأمانة .

ورد الفعل الثالث : أن يبدى الانسان استعدادا وتقبلا لتحمل الأمانة . . فإذا أصيب بضيق مادى ، أو احتاج لشىء ، امتدت يده إليها ليأخذ منها . . على أساس أنه سيعيد ما أخذ . . ثم يفاجأ عند مجىء موعد الرد بأنه لا يستطيع أن يرد الأمانة فينكرها . .

هذا هو المعنى العام للأمانة التى حملها الانسان . . وهى منهج الله فى الأرض وحرية الاختيار فى افعل ولا تفعل . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب ـ الآية ٧٢)

وقد أوضح الله سبحانه وتعالى الأمانة بمعناها الواسع فى القرآن الكريم . . فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٨٢)

ومعنى ذلك أن الدين هو الذى يقوم عليه صك مكتوب ، أو ورقة مكتوبة . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٨٣)

عرض الله على السموات والأرض والجبال وغيرها أن تحمل منهج الله . . وأن يأتمنها الله على هذا المنهج ، ويعطيها الحرية فى أن تفعل ولا تفعل . . وأن تأتى إليه عن اختيار ، وعن حب ، وليس عن قهر . . فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم . . وان خالفت المنهج ولم تفعل بقيت خالدة فى النار . . ولكن كل هذه المخلوقات رفضت أن تحمل الأمانة وقالت : يارب إننا نخاف . ونشفق على أنفسنا . ونخشى ألا نستطيع أن نؤدى أمانة المنهج الذى تريدنا أن نحمله . . ولذلك يارب اجعلنا مقهورين على طاعتك ، غير مختارين أن نعصى .

ولكن الانس والجان قبلوا أن يحملوا هذه الأمانة . . وقالوا : يارب نحن قادرون وسنكون أمناء على المنهج ونطيع ولا نعصى . وعندما بدأت المهمة . بقدر كثير من الناس على حمل أنفسهم على طاعة ، وخانوا الأمانة .

ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الانسان حين حمل الأمانة

بوصفين : بأنه ظلوم ، أى كثير الظلم . . وجهول ، أى أنه عظيم الجهل . . لأن الانسان ظلم نفسه ، فحملها ما لا يقدر الضعف البشرى فى كثير من الأحيان أن يتحمله . . ولأن بنى الانسان يريد أن يتميز كل واحد منهم على غيره . . وأن يغتر بنفسه . . بينما يجب أن تتحدد أهدافهم فى طاعة الله . . لذلك كان الانسان كثير الظلم . . وهو ليس ظالما ، ولكنه ظلوم لأنه يظلم نفسه فيمنعها من نعيم مقيم من أجل متعة مؤقتة تعطيها له معصية . . وظلمها ثانية بأن منعها من الجنة . . ولأنه ـ وهو يعلم يقينا أنه تارك كل شىء فى الدنيا ـ يريد أن يملك ويملك . . ويرتكب فى سبيل ذلك معاصى كثيرة . . ولو تنبه فإنه يدرك أنه لا يخرج من الدنيا بشىء إلا ذنوبه .

وكـان الانســان جهـولا

ولماذا كان الانسان جهولا ، أى عظيم الجهل . . لأنه استهان بعذاب الله . . ذلك العذاب الذى هو محجوب عنا . . ولو رأيناه ما نطق لسان بمعصية . . ولا امتدت يد إلى مال حرام ، ولكن لأن هذا العذاب أخفى عنه . . ظن الانسان انه لا علم إلا علمه . . ونسى علم الله الواسع الذى لا تحدّه حدود . . وقدرة الله التى لا تفوقها قدرة . . وهو جهول لأنه بقدر ما أعطاه الله من علم ومن ذكاء . . عبد أشياء لا تنفع ولا تضر . . فعبد الحجر ، وعبد الشمس ، وعبد النار ، وعبد الحيوانات ، وعبد الدنيا . . ولو أنه

كان يعقل ولا يجهل . . لعلم أن هذه المخلوقات كلها أدنى منه . . وأن الله سخرها كلها لخدمته . . فكيف يعبد الأعلى الأدنى ؟!

ولأنه جهول عبد الدنيا ، وهو مفارقها . . والخالق لا يفارق مخلوقه .

مع أن الله سبحانه وتعالى حين حمله الأمانة أعطاه العقل الذى يميز به . . وجعل هذا العقل أساس الحساب بحيث يتوقف الحساب حين يتوقف العقل عن أداء العمل . . فالمجنون يسقط عنه التكليف ، ولا يحاسب . . والطفل الذى لم يبلغ الحلم والنضج العقلى الذى يجعله يستطيع أن يفرق أو يميز لا يجرى عليه القلم . . فلقد حرم الله كل ما يعطل العقل ويفسده .

حرم الخمر تحريما قاطعا ، لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء مهمته فى الحياة . . وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات ، لأن مقومات الشريعة الاسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الالهى الى ميز الله به الانسان ، وهو العقل . . واختيارات العقل هى التى تشقى الانسان وتسعده فى الحياة . . وتقوده إلى الجنة أو النار . . فالغريزة لها انفعال واحد . أما الفعل فأمامه بدائل كثيرة .

فالانسان مثلا إذا آذى كلبا فإنه يعضه بلا انفعال آخر . . وكلما أوذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من آذاه . . والحصان مثلا يرفس من يؤذيه . . انفعاله له شيء واحد لا يتغير . . ولكن الانسان إذا ضربه إنسان آخر فإن أمامه عدة بدائل . . إنه يستطيع أن يرد

الضربة بمثلها أو بأشد منها أو بأقل منها .. أو أن يصفح عمن ضربه ، أو يكتفى بتوبيخه .. هناك بدائل لا حدود لها موجودة عند الانسان وحده .. هذه البدائل يضعها العقل ، وليست الغريزة .

والانسان فى كل لحظة من لحظات حياته مطالب بالاختيار .. إذا قمت بهذا العمل فهل أوفق فيه؟ .. وأنا فى ضيق مالى أترك وظيفتى وأبدا عملا حرا ؟ .. وإذا أفلست فماذا يحدث ؟ هل أبيع السلعة أم أبقيها ؟ ربما يرتفع سعرها فأكسب أكثر .. وربما انخفض سعرها فتكون الخسارة كبيرة .

وهكذا يظل الانسان يعانى فى كل أحداث الحياة .. وهنا يصطدم المنهج مع ما تريده النفس مع الخوف من الدنيا .. هل أرضى صاحب النفوذ ، وأغضب الله ، لأربح مالا ؟ .. هل أشهد الزور وأكذب لأحصل على ترقيه ؟ وهنا يكون الصراع بين هوى النفس وبين منهج الله .

والانسان المؤمن تتحد مراداته فى الحياة الدنيا مع مرادات منهج الله سبحانه وتعالى منه .. فهو يتبع ما أمره الله به .. فيكون قد أدى الأمانة التى حملها .. وحصل على السعادة فى الدنيا والآخرة .. يخلص نفسه من هذه الصراعات كلها .. ويعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يحميه ، وعلى أن يحقق له ما يريد . فيتبع الحق . ويقول الصدق ، ولا يخشى إلا الله .

أما الانسان الذى يخون الأمانة ، ويعصى الله ، ويجرى وراء

كسب دنيوى دون ما إيمان حقيقى فى نفسه . . فيكون قد خسر الدنيا والآخرة . . فلا يمكنه الله مما يتمناه فى الدنيا ، ويكون من أهل النار فى الآخرة . ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى سلوك هذا الانسان بقوله :

﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

(سورة الحج ـ الآية ١١)

وبعد أن تحدثنا عن الخلق والحياة ، ومهمة الانسان فى الحياة ، لابد أن نكمل الحديث بمغادرة الانسان للحياة . . فكما أن هناك حياة . . وأن هناك مهمة فى الحياة حملها الانسان ، وائتمنه الله عليها ليؤديها . . فلابد أن تكون هناك مغادرة لهذه الحياة . . ثم حساب على ما فعلناه .

ولكن قبل أن ننتقل إلى الحديث عن الانسان ، وهو يغادر الدنيا ، لابد أن نتوقف لحظة لنقول : أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان ليأتيه عن حب واختيار . . ولم يخلقه ليأتيه بالقهر والجبر . . ذلك أن القهر يسقط الحساب حتى فى قمة العقيدة ، مصداقا لقول الله تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥٦)

نهاية الحياة

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(سورة النحل - الآية ١٠٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(سورة النور - الآية ٣٣)

ولذلك فإنه لكى يكون الحساب عدلا . . فإنه لابد أن يتم الفعل بإرادة الانسان ورغبته وبلا إكراه . . وعندما تأتى ساعة مغادرة الدنيا تكون كل أفعال الانسان التى يأخذها معه برغبته وبإرادته الحرة .

والخلق والموت والبعث كل هذا موجود فى علم الله وواقع . . ولذلك فإننى أقول دائما إننا يجب أن نتنبه إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة يس)

ولابد أن نتنبه هنا إلى قول الله « أن نقول له » . . أى أن الشىء كائن وموجود فى علم الله سبحانه وتعالى . . فإذا قال له : أى قال

لهذا الشيء الذى له وجود فعلى فى علم الله « كن » . . ظهر لنا فعلمناه . . أو رأيناه . . أو اكتشفناه .

إذن فكل ما فى الكون من موت وحياة وبعث وأحداث تقع . . كلها موجودة فعلا فى علم الله سبحانه وتعالى ولكننا لا نعلم عنها شيئا . . إلا عندما تأتى مشيئة الله بكلمة « كن » .

هذه هى الحقيقة التى لابد أن نتنبه لها أولا : حتى نعرف أن علم الله شامل لكل شىء ولا حدود له .

نلاحظ ، ونحن نتكلم عن الموت والحياة ، أن الله سبحانه وتعالى جعل الموت سابقا للحياة فى قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾

(سورة الملك - الآية ٢)

فلماذا سبق الموت الحياة فى هذه الآية ؟ . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا فى هذه الآية لكيلا يأخذنا غرور الدنيا وما تعطيه . . فإذا اغتر الانسان بما يعطيه الله له من مال . . أو ملك ، أو ما أعطاه الله له فى الدنيا من نعم . . فتأتى هذه الآية فتوضح أنه كان ميتا فأحياه الله ، فلا يغتر بهذه الحياة . . ولا يملأ الأرض بالمعاصى . . لأنه وإن كان له كيان اليوم . . فلم يكن له كيان فيما مضى أو حياة ، ومصيره مرة أخرى إلى ترك هذه الحياة ، مهما طال به الأجل ، وترك كل ما فيها من نعم .

فالغرور الانسانى هو بداية المعصية . . ودائما عندما يغتر الانسان بنفسه ويملؤه الفخر بذاته وقدراته . . فإنه يبدأ الابتعاد عن الله تعالى ، والابتعاد عن المنهج . . فمادام قادرا على أن يحقق لذاته ما يريد . . فقد أصبح يتصور أنه ليس محتاجا إلى الله . . ومن هنا تبدأ المعصية . . فالانسان الذى يحس أنه فى حاجة دائما إلى الله تعالى . . يبقى دائما متعالقا بالله متبعا لمنهجه . . فإذا أحس أنه فى منعة وعزة بدأ يبتعد ، وذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٨٣)

وقوله تبارك وتعالى :

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ

(سورة العلق ـ الآية ٦ و ٧)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾

(سورة يونس الآية ٩٢)

إذن مادام الانسان فى ضر فإنه لا يتجه إلا إلى الله . . حتى ذلك

الذى ينسى الله . . ويبتعد عن المنهج ، بمجرد أن تصيبه محنة أو ضرر او أزمة ، يرفع يديه إلى السماء ويقول : يارب . . وفى هذه الحالة يكون الانسان صادقا مع نفسه . . لأنه يعلم يقينا أن الأمر كله بيد الله ، ويعرف أن كل ما اتجه إليه من نعم الدنيا وأسبابها لم يستطع أن يعطيه الحماية التى كان يريدها . . أما إذا اغتر الانسان وأحاطت به النعم فإنه ينسى الله . . ويأخذ بالأسباب . . ويفعل كما فعل قارون ، ويقول : إنما أوتيته على علم عندى .

لماذا أخفى الله موعد الموت ؟

لقد وضع الله سبحانه وتعالى من خصائص الموت ما يجعل الانسان يفيق من غرور وجاه الدنيا ، ويذكره بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فأخفى الله موعد الموت . . لماذا ؟ . . حتى يتوقعه الانسان فى آية لحظة . . فكلما اغتر تذكر انه قد يفارق الدنيا بعد ساعة أو ساعات ، فرجع عن غروره ، ورجع إلى الله سبحانه وتعالى .

ولو كان الله قد أعلم كلا منا بأجله وعصينا الله . . وطغينا فى الحياة . . وظلمنا الناس . . ثم نتوب ونستغفر قبل موعد الأجل بأشهر . . فى هذه الحالة تنتفى حكمة من الحياة

واخفاء الله سبحانه وتعالى موعد الموت هو اعلام به . . ذلك أن

إخفاء الموعد يعنى أن الانسان يتوقع الموت فى أى لحظة . . ولذلك فإنه إذا كان عاقلا تكون عينه على الدنيا ، وعينه الأخرى على الآخرة . . فإذا ارتكب معصية فهو لا يعرف هل سيمد الله أجله إلى أن يرتكب المعصية ويتوب . . أم أن أجله قد يأتى وقت ارتكاب المعصية ، فلا يجد الوقت للتوبة .

وما يقال عن المعصية يقال عن العمل الصالح . . فلو أن موعد الموت معلوم . . لأجل الانسان العمل الصالح إلى آخر حياته . . ولكن الله يريد أن يكون الصلاح ممتدا طوال الزمن ولذلك أخفى موعد الموت . . ليعجل الناس بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى الأجل . . فكان إخفاء الموعد فيه رحمة من الله للبشر . . رحمة بأن يخافوا المعصية أن تأتى مع الأجل . . ورحمة بأن يسارعوا فى الخيرات حتى لا يفاجئهم الأجل .

نأتى بعد ذلك إلى ساعة الاحتضار . . وهى الساعة التى تغادر فيها الروح الجسد . . أو سكرة الموت ، كما يسميها الله سبحانه وتعالى . . فى هذه اللحظة تكون قد انتهت حياة الاستعلاء ، وحياة الكبر ، وكل مظاهر الحياة الدنيا . . وكل ما تستطيع الحياة أن تعطيه للانسان . . تقف الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها من علم وقوة ونفوذ وسلطان عاجزة أمام قدرة الله سبحانه وتعالى . . ففى هذه اللحظة يأخذ الانسان مقدمات الغيب . . أى أن الانسان ، وهو يحتضر ، يرى أشياء ما كان يقدر أن يراها فى أثناء الحياة الدنيا . . لماذا ؟ . . لأن بشريته الآن قد خمدت . . ومادامت البشرية قد

خمدت ، تهب نفحات الغيب . . وهذا هو معنى الآية الكريمة :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة ق - الآية ١٩)

أى ما كنت تريد ألا تتذكره أو تعترف به .

فى هذه الحالة لا تنفع فيها التوبة ، ولا يجدى فيها الاستغفار . . فمادامت سكرة الموت قد جاءت ، فقد انقطع عمل الانسان الدنيوى .

والله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا أشياء تحدث للانسان وهو يحتضر . فقال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة - الآية ٨٣ - ٨٥)

أى أن الانسان وهو يحتضر ، يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله . . وهم إذا كانوا يقفون حوله فإنهم لا يبعدون عنه إلا مسافات قصيرة . . فإنه يرى أشياء لا يرونها . . ويرى مقدمات الغيب لا يبصرها من حوله ، ويرى الملائكة .

واقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام ـ الآية ٩٣ ـ ٩٤)

ماذا يرى الانسان ساعة الاحتضار ؟

هكذا نرى أن الانسان ساعة الاحتضار يرى الملائكة ويكلمونه فإن كان من الذين عصوا الله ، والعياذ بالله ، بشره الملائكة بالعذاب . . وبشروه بجهنم ، وهو فى هذه اللحظة لا يراهم فقط ، بل يسمع كلامهم على أننا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى

أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ

(سورة الأنعام ـ الآية ٩٣)

والنفس ـ كما قلنا ـ هى التقاء الروح بالجسد . . فكيف يطلب الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه .

لكى نفهم هذه الآية لابد أن نضع فى أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافرا بالله ، ومكذبا بالبعث . . وحينئذ وهو يحتضر يقول له الملائكة : هائنتذا الآن ترى ما كنت تكذب به . . وترى العقاب الذى ينتظرك ، فإن كان لك قوة أو قدرة كما كنت تدعى فى الحياة الدنيا ، فاخرج نفسك من هذا . . أهرب إذا كنت تستطيع . . خلص نفسك إذا كانت لك قوة أو تفوق . . إنك لا تستطيع فى هذه اللحظة أن تخرج نفسك مما أنت فيه . . ألم تعد لك قدرة على أن تسيطر على ذلك . . لقد كانت هذه القدرة من الله سبحانه وتعالى . . وهبها لك فى الحياة الدنيا . . ولكنك الآن لا تملك فى نفسك شيئا ، ولا ينتظرك إلا العذاب . . لما كنت تقول على الله غير الحق ، وتستكبر فى الأرض .

وفى هذه اللحظة أيضا تذكر الملائكة هذا الانسان الكافر المنكر لآيات الله بأنه قد جاء إلى الموت وحده ، وليس معه عصبته ، ولا عزوته فى الدنيا . . وحيدا كما تم خلقه . . حتى الآلهة التى أشرك بها قد تخلت عنه . . وحتى الذين كان يعصى الله من أجلهم لم يأتوا معه ، ولا يستطيعون أن يدافعوا عنه . . ثم تكتمل الصورة بقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

(سورة الأنفال ـ الآية ٥٠ ـ ٥١)

أى أنه ساعة الاحتضار يكون هناك ضرب وإيذاء من الملائكة للكافرين .

والمعروف أن أى نوع من العذاب لا يتم إلا مع وجود الحياة . فأنت لا تستطيع أن تعذب جسدا ميتا .. ولكن لكى يحس الجسد بالعذاب لابد أن تكون فيه حياة أو روح .. أى أن ما يحدث من الملائكة معه ضرب وإيذاء إنما يحدث ساعة الاحتضار وفى الجسد حياة .

وانظر بعد ذلك إلى الصورة المقابلة فى الصالحين الذين تتوفاهم الملائكة . يقول الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة النحل ـ الآية ٣٢)

أى أن الانسان الصالح حين يصل إلى ساعة الاحتضار يرى الملائكة أيضا .. فكل إنسان ، وهو يحتضر ، يرى ملائكة الموت .. ولكن اللقاء يكون مختلفا .. فبينما الكافر يضرب الملائكة وجهه

ودبره .. ويقولون لهؤلاء الكافرين « ذوقوا عذاب الحريق » .. فإن الانسان المؤمن تدخل عليه الملائكة بالبشرى . ويقولون له سلام عليكم .. أى أنت وصلت إلى دار السلام بأمان .. ويبشرونه بالجنة .

هنا فى ساعة الاحتضار يفترق المؤمن والكافر ، وذلك بخلاف الحياة الدنيا كلها ، ففى الحياة الدنيا قد يكون الكافر له من الحياة والسلطان ماليس للمؤمن .. وقد يكون له فى العلو والترف ماليس للمؤمن .. ولكن تبدأ التفرقة بينهما ساعة الاحتضار ، فيرى الكافر الملائكة ، وقد جاءوا بمقدمات الجزاء ، وانهالوا ضربا عليه .. ويرى المؤمن الملائكة ، وقد جاءوا بمقدمات النعيم وبشرى بالجنة . ويرى الكافر النار .. ويرى المؤمن الجنة .

حينئذ لا تنفع التوبة ، وذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء ـ الأيتان ١٧ ـ ١٨)

أى أن لحظة الاحتضار ـ كما قلنا ـ لا تقبل فيها التوبة . .
ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان ـ الآية ٢٢)

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا بأن الانسان يرى الملائكة ومقدمات الغيب فى ساعة الاحتضار . . وفى هذه الساعة لا تنفع التوبة . . والانسان وهو يحتضر ، يعلم موقعه ، هل هو من أهل النار ، أم من أهل الجنة . . تلك هى لحظات نهاية الحياة .

حينئذ ينتقل الانسان من حياة إلى حياة ، أو من قانون إلى قانون . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

– الفصل الثالث –

قانون ما بعد الحياة

عندما ينتقل الانسان من الدنيا ، وينتهى فيها عمره ، يكون قد بدأ أول أيامه من رحلة الآخرة . . ذلك أن كل من يخرج من الدنيا تنتهى صلته بأحداثها تماما . . ولا يصبح أمر الدنيا هو شغله . . وينقطع عمله إلا من علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له . كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له » .

هذه الأشياء الثلاثة التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم هى امتداد لعمل الانسان فى الدنيا . . والعلم الذى ينتفع به هو امتداد لعلم اجتهد فيه الانسان فى حياته الدنيوية ، ثم علمه للناس وتركه لينتفع الناس به . . فهذا النفع هو اتصال لعمل الانسان ، ويكون له جزاء عليه .

ولكن هناك شرطا لهذا العلم ، هو أن يكون لوجه الله سبحانه وتعالى . . أو يقصد به الله . . فكل عمل يقوم به الانسان ، ولا يقصد به وجه الله ، ليس له أجر عند الله . . وهذا كما قلت مبدأ لابد أن نفهمه ، لأنك تأخذ أجرك فى الدنيا وفى الآخرة ممن عملت من أجله . . فلا يعقل أن تعمل عملا لإنسان ، ثم تذهب لتطالب شخصا آخر بأجرك . . هذا لا يتفق مع منطق الوجود . . وكذلك تعمل عملا لغير الله . . ثم تطلب من الله أجرك فى الآخرة .

وكثير من الناس الذين قدموا خدمات للانسانية .. ولم يكن فى بالهم الله ، وهم يقومون بهذا العمل ، أعطاهم الله أجرهم فى الدنيا .. فأطلقت أسماؤهم على الميادين والمدن ، واقيمت لهم التماثيل ، واحتفل الناس بذكراهم .. وكان من عدل الله أن يوفيهم أجرهم فى الدنيا التى عملوا لها .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

(سورة هود - الآيتان ١٤ - ١٥)

وليس معنى ذلك أن يكون العلم من علوم الدين وحدها .. أى أن أى إنسان مؤمن يصل إلى علم وفى باله الله ، وأنه يعمل ليرضى الله واستفادت الدنيا كلها بعلمه ، فإن الله يؤتيه أجره ، لأنه لم يعمل من أجل مال أو جاه أو شهرة .. رغم أن هذه قد تأتى ، ولكنه يعمل من أجل الله .. أما ذلك الذى لا يحمل فى قلبه أى نوع من الايمان ، ويعمل من أجل الدنيا وحدها ، وهو غير مؤمن بالآخرة . فإن الله يؤتيه أجره فى الدنيا

أما الصدقة الجارية فهى مال الانسان الناتج من عمله ورزقه .. وبدلا من أن ينفقه فى أن يبنى به قصرا .. أو فى الترف ، أو فى الافساد

فى الأرض . . ينفقه فى عمل يبتغى به وجه الله وحده . . كأن يبنى مسجدا ، أو يقوم ببناء دار يسكن فيها الفقراء مجانا ، أو ملجأ للأيتام ، أو يرصد إيراد ما يملكه لينفق فى سبيل الله . . ومادام هذا العمل قائما فى الدنيا فإنه يصل إليه أجره فى الآخرة .

وولد صالح يدعو له ، هو جزاء من الله على حسن تربية الأبناء على منهج الله ، بحيث ينشأون صالحين . . ومن علم ابنه القرآن ، وحرص على أن يؤدى هذا الابن الصلاة ، وحثه على الصدقة ، وكل عمل طيب . . فإن هذا الابن الذى هو امتداد للأب يكون دعاؤه مقبولا رحمة لأبيه ، وزيادة فى حسناته ، وذلك حتى نحرص على أن يشب أولادنا على الفطرة السليمة والدين القويم .

كـل حيــاة لهـا قـوانـيـن

هنا قد يتساءل بعض الناس : ما نوع الحياة التى ينتقل إليها الانسان فى قبره وقبل البعث ؟ نقول لهؤلاء جميعا : إن كل حياة خلقها الله لها قوانينها . . فإذا انتقلنا إليها نعرف هذه القوانين . . ولكى يقرب الله سبحانه وتعالى هذه الصورة إلى الأذهان ، ويجعل العقول تستوعبها . . جعل الحياة قانونين مختلفين تماما . . قانون اليقظة وقانون النوم .

فأنت حين تكون مستيقظا تخضع حياتك لحواسك . . فترى بعينيك وتسمع بأذنيك ، وتمشى بقدميك إلى آخر ما يحدث بالنسبة لكل فرد فينا . . فإذا دخلنا إلى النوم انتقلت من هذه القوانين كلها إلى قوانين مختلفة تماما .

أولا حين تنام فإنك تفقد تماما عنصر الزمن . . لأن الزمن لابد له من أحداث تحدده . . فإذا لم تكن هناك أحداث فقدت إحساسك بالزمن . . ولذلك فإن الانسان إذا نام . . لا يعرف حين يستيقظ كم ساعة قضاها فى النوم إلا إذا نظر إلى الساعة . . ولا نجد إنسانا يستطيع أن يقول لك إنه نام ساعة أو ساعتين أو ثلاثا أو سبعا إلا إذا أخبرته أنت ، أو إذا نظر إلى الساعة ، أو إذا تغير الزمن . . بأن يكون قد نام ، والشمس مشرقة . . وقام والليل قد جاء . . إذن ففى قوانين حياة النوم يلغى الزمن .

وأنت نائم ترى فى المنام أشياء عجيبة لا تراها فى الدنيا . . وتجد نفسك فى أماكن غريبة لم تشهدها من قبل . . وتلتقى بعدد من الناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة تتكلم وتتحدث معهم . . وربما رأيت نفسك تقفز من جبل عال ، وتستقط فى واد عميق ، ولا تصيبك كسور ، ولا تحس بآلام . . وتقع لك أحداث لا تتفق مع منطق الحياة ولا قوانينها . فتجد نفسك مثلا فى الهواء بدون طائرة . أو تهبط إلى باطن الأرض . . أشياء لا تتقيد بمنطق ، ولا بقوانين حياة اليقظة فى الدنيا .

والعجيب أن ذلك يحدث لك وكل حواسك معطلة . . فأنت ترى وعيناك مغمضتان . . والعين حين تغمض فى اليقضة لا ترى . . وأنت تجرى ورجلاك ساكنتان فوق السرير . . وسكون حركة القدمين يتنافى مع الحركة فى حياة اليقظة . . فإذا كنت متيقظا ، وقدماك ساكنتان ، فأنت لا تتحرك . . وترى نفسك وأنت خارج هذه النفس . . فالانسان فى حياته الظاهرة لا يرى نفسه وهو خارجها . . وتتكلم ولسانك لا يتحرك . . وفى الحياة الظاهرة إذا سكن لسانك امتنعت عن الكلام .

كل هذا يطرح أكثر من تساؤل . . كيف ترى وعينك مغمضتان إذا كان الانسان لا يرى إلا بعينيه . . إذن فهناك رؤية بغير العين . . أى أن وسيلة الرؤية التى وضع الله أسرارها فى جسدك تعتمد على العين فى الحياة الظاهرة فقط . . أما وأنت نائم فإن هناك ملكات أخرى ترى . . وهناك ملكات أخرى غير قدميك تتحرك . . وهناك ملكات أخرى غير لسانك تتكلم . . والقوانين التى تحكمك ، وأنت نائم ، تختلف تماما والقوانين التى تحكمك وأنت فى حياة اليقظة . . ومع ذلك فأنت أنت نفس الانسان الذى ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد أن يضع جسده على السرير وينام .

وتحاول أن تجد تفسيرا لذلك كله فلا تستطيع . . بعض الناس يقول : إنه العقل الباطن . . والبعض الآخر يقول إنها رغبات مكبوتة . . كل إنسان يفسرها كما يريد . . ولكن أين هى

الحقيقة ؟ . . لا أحد يعرف ذلك يقينا إلا أننا حين ننام لا نتبع قوانين حياة اليقظة . . فإذا كان الانسان ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد النوم . . فكيف لا ينتقل من قانون إلى قانون عندما تنتهى حياته فى الدنيا ، ويبدأ الحياة فى البرزخ . . ولا أحد يعرف ما هى القوانين التى تحكم الانسان عندما يغادر الحياة الدنيا . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى من كفار قريش بعد موقعة بدر . . وعندما سأله الصحابة : أتكلم الموتى يارسول الله ؟ . . قال إنهم يسمعوننى . ولكنهم لا يستطيعون الرد . . وكلم الموتى وهم فى قبورهم ، وكان يسمعهم . . ولكن هذه خاصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . كما قيل إن على بن أبى طالب رضى الله عنه كلم أصحاب القبور فى البقيع .

ولكن كل هذه الخصوصيات لمن أراد الله سبحانه وتعالى أن يفتح له بابا من أبواب الغيب ، ولا يمكن أخذها على أساس أنها عمومية يستطيعها كل إنسان ، أو يقدر عليها كل منا . فهى تختص بصاحبها فقط : ولذلك يجب ألا تعمم . . وإنما تنقل عمن قالها . . ونصدقها مادام قد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها مروية عنه .

أما نحن فيقف علمنا عند حد أن هناك حياة خاصة فى البرزخ لها قوانينها الخاصة ، ولها طبيعتها الخاصة . . كما أعطانا الله سبحانه وتعالى قانون النوم ، وقانون اليقظة ليعرفه كل منا . . فنخرج من ذلك بأن هناك أشكالا متعددة ، أو أطوارا للحياة يمر الانسان بها فى

مراحل مختلفة . . كل له قانون يحكمه ، كما أن لكل خلق من خلق الله قوانين تحكمه .

بين الموت والبعث

على اننا إذا أردنا أن نأخذ مثلا من القرآن الكريم على أن هناك حياة بين الموت والبعث . . فإننا نأخذ ما رواه الله لنا عن آل فرعون كتشبيه لنا عن حياة البرزخ . . يقول الله سبحانه وتعالى فى آل فرعون :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سوة غافر ٤٦)

عندما يقول الله سبحانه وتعالى :
« يعرضون عليها غدواً وعشيا » .

فإن فى ذلك إشارة إلى أن هناك زمناً . . فالغدو والعشى أوقات ، وهذا من صفات الزمن ، ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

(سورة غافر ٤٦)

إذن عرض آل فرعون على النار لا يكون يوم القيامة . . فإن هناك زمنا يعرض فيه آل فرعون على النار . . ثم هناك زمن آخر عندما يأتى موعد يوم القيام يدخلون أشد العذاب . . إذن العرض غير قيام الساعة . . الظرفان مختلفان . . وبذلك نرى أن هناك حالتين . . حالة عرض على النار . . وحالة إدخال آل فرعون أشد العذاب يوم القيامة .

وإذا كنا نريد أن نمضى فى معرفة الآية الكريمة فإننا نقول : إن الأزمان يمكن أن نحددها نحن بثلاثة : هى : حياة الانسان . . وما بين الموت والبعث . . ويوم تقوم الساعة . من خلال هذه الأزمنة الثلاثة نحاول أن نحدد متى يتم العرض على النار . . غدوا وعشيا متى ؟

هل كان آل فرعون يعرضون على النار ، وهم فى الحياة الدنيا ؟ ثابت أنه لا . . فقد كان فرعون عاليا فى الأرض ، ونصب نفسه إلها يعبد . . واستخف قومه فأطاعوه . . وكل الأحداث التى رواها القرآن الكريم عن قصة فرعون وموسى تنفى تماما أن العرض كان فى الحياة الدنيا . . ولو أن آل فرعون عرضوا ولو مرة واحدة على النار فى الحياة الدنيا ما عبدوا فرعون ولو دقيقة واحدة . . بل لكانوا قتلوه . . ولو أنهم عرضوا على النار مرة واحدة فى الحياة الدنيا لآمنوا وسجدوا لله تعالى .

إذن لم يبق من الأزمنة إلا زمنان : حياة البرزخ ويوم القيامة . .

يوم القيامة يدخلون أشد العذاب . . ومن هنا انتقلت حالة أنهم يعرضون على النار يوم القيامة . . إذن فلابد أنهم يعرضون على النار فى حياة البرزخ . . وقد اختص الله آل فرعون بهذا العرض لتجبرهم وعبادتهم لفرعون . . وإدعاء فرعون الألوهية . . لأنها ليست معصية أوامر . . ولكنها معصية أمر . . فباقى الأمم عصوا الأوامر . . ولكن آل فرعون عارضوا الأمر على الألوهية وأنكروها . . فلذلك كان لهم أشد العذاب . . وكانت حياتهم فى البرزخ يعرضون فيها على النار .

هذه صورة من حياة البرزخ يرويها لنا القرآن الكريم . . وهناك صور أخرى حجبها الله عنا فى علم الغيب . . وكون الله سبحانه وتعالى قد أعد لآل فرعون أشد العذاب ولم يدخلهم النار إلا يوم القيامة دليل على أن العذاب الحقيقى يبدأ يوم القيامة . . وأن الانسان فى قبره يعرف مصيره . . يعرف حسناته وسيئاته . . يعرف مقامه من الجنة أو من النار . . ويرى مقعده ومنزلته فيهما . . فإذا عرف أن مقامه فى النار . فذلك عذاب ما بعده عذاب . . لأنه عرف يقينا إلى أين يذهب . . ولذلك فإن هذا العذاب يجعله فى قبره ، وكأنه يتقلب فى النار حين يرى مصيره الأكيد . . يعيش فى ظلمة . . ويعيش فى كرب ما بعده كرب . . وحين يرى المؤمن مقامه أو مصيره فى الجنة . فإن ذلك نعيم ما بعده نعيم ، لأنه يحس وكأنه يعيش فى الجنة ونعيمها . .

إذن فالعذاب الحقيقى لا يأتى إلا بعد الحساب . . ولكن فى القبر

يكفى أن الانسان يعرف أن مصيره إلى النار ، ليعيش فى عذاب مقيم . . ويكفى أن الانسان يعرف أن مصيره إلى الجنة ، فيعيش فى نعيم مقيم .

من هو القرين ؟

نأتى بعد ذلك إلى ما يقال عن القرين . . ولقد سمعنا أشياء كثيرة تقال عن القرين . . وكيف أنه يلازم الانسان فى حياته ، وانه يعيش مدة أطول منه . . وانه عندما يمارس الناس مسألة تحضير الأرواح ، فإن هذا القرين هو الذى يأتى ، وهو الذى يتكلم .

والحقيقة أن الناس قد أخطأوا فى فهم معنى القرين . . والله سبحانه وتعالى شرح لنا ما المقصود بالقرين . . ومن هو القرين فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

وقوله جل جلاله :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾

(سورة الزخرف ـ الآيات ٣٦ ـ ٣٨)

وقوله عز وجل :

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا

(سورة النساء ـ الآية ٣٨)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

(سورة ق ـ الآية ٣٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة فصلت - الآية ٢٥)

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد بين لنا بما لا يقبل أى شك أو تأويل ، معنى القرين . . فالقرين هو من شياطين الانس والجن . . ومهمته أن يبعد الناس عن الصراط المستقيم . . وان يزين لهم معصية الله . . وأن يوسوس لهم بالسوء . . وأن يغويهم إلى طريق المعصية . . هذه هى مهمة القرين كما أوضحها الله سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم . . فكل من يصد عن سبيل الله ، ويحاول أن يبعد الناس عن منهجه فهو قرين .

ولكل إنسان منا قرين يحاول أن يدفعه إلى طريق النار . . ويدخل إلى قلبه الشك فى الايمان ، ويزين له عبادة الدنيا . . حتى إذا جاء يوم القيامة تبرأ هذا القرين من الانسان ، وقال : يارب انا لم أجعله يطغى ، ولم أزين له طريق المعصية . . ولكن هوى نفسه هو الذى دفعه إلى هذا الطريق . . فبعده عن المنهج هو الذى جعله ينحرف . . وهكذا يحاول كل من الانسان العاصى ، وقرينه أن يلقى اللوم على الآخر . . أما القول بأن هذا القرين هو شبيه بالانسان ، وانه يلازمه طوال حياته ويعيش أكثر منه . . فذلك لم يثبت إلا إذا كان المقصود أن القرين يظل يوسوس للانسان بالسوء طول حياته . . ويحاول أن يمنعه من العمل الصالح ومن العبادة . . ويظل يطارده ويلاحقه فى كل مكان ويدفعه إلى المعصية .

وعلى أية حال ، الثابت من القرآن الكريم أن القرين هو من شياطين الإنس والجن الذين يدفعون الناس إلى معصية الله ، وإلى طريق النار . . وان لكل إنسان قرينا يدفعه إلى هذا الطريق ، وان بعض الناس يستمعون إلى هذا القرين ، ويمضون فى طريق البعد عن منهج الله . . وبعض الناس لا يستمعون إلى القرين ولا يبالون به . وبذلك يكونون من أهل الجنة .

لقد ضرب القرآن مثلا عندما سأل واحد من أهل الجنة من القرين الذى كان يوسوس له بالسوء ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، أى فى وسط النار . . ومعنى ذلك أن هذا القرين قد أخفق فى أن يقود المؤمن إلى طريق الهلاك . . وهذا واضح من الآيات التى أوردناها .

كل شىء .. له كيان

كل شىء فى هذه الدنيا له كيان ، ولابد أن نعرف أن الموت له كيان . وإذا كنا لا نراه أو لانشهده ، فذلك لأنه محجوب عنا . . وكل شىء فى الدنيا هناك ملك موكل به . . والملائكة تتولى الانسان منذ خلقه حتى موته ، حتى بعثه .

وهناك خلق كثير ، وأشياء كثيرة لا نراها . ذلك أننا محدودون ببشريتنا . . ولذلك فإننا لا نرى إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . ذلك الظاهر الذى يمكننا من أن نؤدى فترة الاختبار التى تمثلها الحياة الدنيا

فى مراحل الحياة . . والناس فى أطوار الحياة المختلفة ، سواء فى الحياة الدنيا ، أو فى البرزخ ، لهم الحياة التى تتناسب مع قوانين تلك المرحلة . . ولا يموت كل من فى الدنيا من مخلوقات إلا عندما ينفخ فى الصور . . وينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى هذا المعنى فيقول :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الزمر ـ الآية ٦٨)

ولا أحد يعرف إلا الله سبحانه وتعالى ما هو الفارق بين النفخة الأولى والنفخة الثانية . . والله وحده هو الذى يعلم ذلك .

فترة الموت تستمر ما بقيت الحياة حتى يوم القيامة . . أى أن ملك الموت أو ملائكة الموت يظلون يؤدون أعمالهم فى قبض الأرواح حتى قيام الساعة . . وكل انسان موكل به ملك موت معين ليقبض روحه فى لحظة محددة معينة . . ويقال إنه عندما يطلق سهم الحياة يطلق معه سهم الموت . . ويظل ملك الموت يبحث عن ذلك الموكل بأن يقبض روحه . . إلى أن يأتى الأجل فيهديه الله إلى مكانه .

الموت .. بلا أسباب

ولقد جعل الله لكل شىء سببا ، ما عدا الموت . . فالموت يأتى

بلا أسباب قد يكون أجل الانسان ، وهو فى بطن أمه لم ير الدنيا بعد . . وقد يكون عمره فى الدنيا ساعة أو ساعتين . . أو يوما أو أياما أو شهورا أو سنوات . فلكل إنسان أجله .

ولذلك فإن بعض الناس قد يقول إنه تشاجر مع إنسان فانفعل ذلك الانسان ومات . . وذلك قول خطأ . . لأن هناك الموت ، وهناك القتل . . والله سبحانه وتعالى قال عن رسوله :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾

(سورة آال عمران - الآية ١٤٤)

إذن فالموت يختلف عن القتل . . ولكى نفهم هذه الحقيقة نقول أن القتل هو هدم البنية الأساسية للانسان ، فالروح لا تبقى إلا فى بنية سليمة تناسب بقاءها . . فإذا هدمت هذه البنية خرجت الروح . . أما الموت فإن له أجلا محددا لا يتأخر عنه لحظة ولا يتقدم .

والانسان لا يملك جسده . . ولو كان يملك هذا الجسد لكان يسيطر عليه . . ولكن معظم نشاطات الجسد الانسانى تتم بدون إرادة منا وبأمر الله . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى عاقب المنتحر بالخلود فى النار . لأن هذا المنتحر قد قام بهدم بنية هى ليست ملكه . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها ، وهو الذى يملكها . . ولنفس

السبب حرم الله القتل إلا بالحق . . وقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(سورة المائدة ـ الآية ٣٢)

وأوعد القاتل بالخلود فى النار إذا تعمد القتل بغير ما شرع الله .

فإذا مات الانسان خلال مشاجرة مثلا أو مشادة لم يصب فيها بإصابة قاتلة تهدم بنيته ، فإنه فى هذه الحالة يكون قد تصادف أجله مع هذه المشاجرة ، أو هذا الانفعال . . أما إذا هدمت بنيته الأساسية يكون ذلك قتلا يستحق القصاص فى الدنيا والآخرة .

ولا يستطيع إنسان أن يعرف ما سيحدث مقدما إلا الأنبياء . . وهم من شاء الله سبحانه وتعالى أن يفتح لهم بابا من أبواب الغيب . . لا يعرف إنسان إن كان مصيره إلى الجنة أو النار . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له مله بعمل أهل الجنة » .

ومما يروى فى هذا الصدد انه فى إحدى الغزوات كان أحد المقاتلين يقاتل مع المسلمين بشجاعة فائقة . . وذهب أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم إليه ممتدحين شجاعة هذا الفارس وإقدامه فى سبيل الله . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو من أهل النار . . فتعجب الصحابة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومضت المعركة ، وجرح هذا المقاتل ، ولم يتحمل الجرح . فوضع سيفه تحت رقبته وضغطه لينفذ السيف من رأسه فمات . . وبذلك مات منتحرا . . واستحق أن يكون من أهل النار . . وعاد الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نشهد إنك لرسول الله .

ولكن كيف عرفت انه من أهل النار ؟ ـ قال كان يقتل ليقال عنه إنه شجاع . . وقد قيل .

والمعنى أن هذا المقاتل لم يكن ، وهو فى المعركة ، يحارب فى سبيل الله . . بل كان يحارب وفى قلبه غرور الدنيا ، حتى يقول الناس إنه شجاع مقدام . . ولذلك لم تكن حربه هذه فى سبيل الله ، ولكن لارضاء الغرور الدنيوى .

ومعنى الحديث ان يعمل أحدكم عمل أهل الجنة . . ان الانسان قد يعمل الصالحات فى حياته ، حتى يصبح قريبا من الجنة ، ثم يغويه الشيطان . . ويغلبه بريق الدنيا فيترك العبادة ، ويطلق العنان لشهواته ، ويضيع عمله الصالح بالانغماس فى المعاصى . . وقد يعصى إنسان الله حتى يكاد يصبح من أهل النار ، ثم يتوب إلى الله فيهدى الله قلبه ، ويتوب عليه ، ويغفر له .

كل العذاب مؤجل
إلا ظلم الناس

وكل العذاب فى الدنيا مؤجل إلا ظلم الناس . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى مؤجل العاصين حسابهم إلى يوم القيامة ما عدا ظلم الناس ، فإن الله سبحانه وتعالى يقتص من الظالم فى الدنيا . . ذلك ان الله إذا ترك الظالم يستشرى بظلمه انتشر الظلم فى الأرض ، وعم الفساد بشكل كبير . . فالفساد الأكبر يأتى من ظلم الناس للناس . . والله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل . . ويعطى الظالم الفرصة بعد الفرصة ليتوب . . ويأخذه بالعذاب الأصغر عله يرتدع . . عله يفيق . . فإذا استشرى فى ظلمه رغم العذاب الأصغر الذى أراه الله له ثم رفعه عنه . . فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر . . فلقد أخذ الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه بالعذاب الأصغر أولا . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ١٣٠)

ويقول تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

(سورة الأعراف - الآيات ١٣٣ - ١٣٦)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ آل فرعون بالعذاب . الأصغر قبل أن يهلكهم بالغرق . . ولكنهم رفضوا أن يرتدعوا بهذه الآيات . . وكلما رفعت عنهم آية من آيات العذاب الأصغر ، عادوا إلى كفرهم وطغيانهم . . ولو أنهم بعد أى آية من هذه الآيات تضرعوا إلى الله ، وعادوا إليه ، فربما تقبل الله توبتهم إن شاء .

وهكذا نجد أن الله يأخذ الظالم بالعذاب الأصغر قبل أن يهلكه ويمهله . . فإذا تجبر فى الأرض ، وزاد فى ظلمه ، فإنه فى هذه الحالة يهلكه . . والسماء تتدخل دائما لتزيل الظلم من الأرض عندما يستكين الناس للظالم ، ولا يتحركوا لدفع الظلم عن أنفسهم . . ذلك أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستشرون عادة فى ظلمهم . . ولذلك لابد أن تتدخل قدرة الله فى الحياة الدنيا لتزيح الظالم أو تهلكه ، حتى لا يستشرى الظلم فى الأرض . . وحتى لا يشقى خلق الله بالظالم حين يزداد فى ظلمه وطغيانه . . لذلك فالله سبحانه وتعالى حريص على أن يرى المظلوم يوما فى ظالمه ، وأن يرى المظلوم هذا الظالم الجبار

مجردا من قوته ذليلا .. تلفظه الأرض كلها .

ولعلنا شهدنا فى الفترة الأخيرة حكاما دانت لهم الأرض .. واستشرى ظلمهم بشعوبهم ، وتدخلت إرادة السماء لتنزع عن هؤلاء قوتهم وجبروتهم .. وانطلقوا مذعورين خائفين .. لا يجدون مكانا فى الأرض يأوون إليه ، رغم عظم ثرائهم ، ووفرة المال عندهم .. ترفضهم حتى تلك الدول التى كانت تعينهم على الظلم .

ولعل قصة ماركوس الذى كان حاكما طاغيا فى الفيلبين .. يقتل ويدمر ويقيم المذابح .. وبين يوم وليلة وجد نفسه مجردا من السلطان .. ترفضه دول الدنيا كلها رغم ما يملك من مال .

إذن فالقصاص من الظالم يتم فى الدنيا .

الانسان يرى الغيب

بقيت بعد ذلك نقطتان .. الأولى : هى أن الانسان يرى بعد الموت مالم يكن يراه فى الحياة الدنيا .. وفى تلك يقول الله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة ق - الآية ٢٢)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الناس نيام . فإذا ماتوا انتبهوا » .

والبصر الحديد هو البصر الحاد الذى يدرك إدراكا أفقه أوسع لم يكن يدركه . . فكل بصر له مدى أفق معين . . وعندما يبتعد الشىء عن البصر يصغر ويصغر إلى أن يتوارى ويزول . . فلا يعود البصر يدركه . . ولكن هل حقيقة أن الشىء يزول ؟ . . لا . . الشىء موجود فى مكانه . . ولكن مدى البصر هو الذى لا يدركه فنعتقد أنه توارى .

والناس فى الدنيا لكل منهم مدى بصر معين . . حدود لقوة البصر . . فإذا أتيت بشىء واحد ، وجئت برجلين : أحدهما ضعيف البصر ، والآخر قوى البصر ، فإن أحدهما ، وهو صاحب البصر الأقوى ، يرى الشىء . . ولكن ضعيف البصر لا يراه .

ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن هناك أشياء لا نراها فى الدنيا . لأن بصرنا الدنيوى محدود . . ولكن هذه الأشياء موجودة رغم اننا لا نراها . . ورغم أنها غيب عنا . . ولا يخفى هذه الأشياء إلا أن بصرنا البشرى محدود . . فإذا جاء الموت فإنك ترى الأشياء التى كنت تكذبها فى الدنيا . . فكأن الغشاوة قد رفعت عن بصرك . . فأصبحت هذه الأشياء واقعا فى حدود بصرك بعد أن كان على البصر غطاء دنيوى يمنعك من رؤيتها .

وهكذا فإن ما كنت تكذب به تراه الآن ويراه بصرك الذى أصبح اليوم قويا حادا . . ولو أنك أمنت بالغيب لرأيت الآن ما أمنت به واقعا . . ولرأيت كل ما ستراه من الغيب الذى حجب عنك رؤية

إيمانية ، ولكان لك اليوم رصيد إيمانى ينجيك من النار . . وهذا لوم وتقريع لغير المؤمنين . .

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . .

معناه : أن الناس فى الدنيا كالنائم الغافل عن الحقيقة ، وعما ينتظرهم فى الآخرة ، فإذا جاءت لحظة الموت رأى الناس مالم يكونوا رأوا فانتبهوا من غفلتهم الدنيوية التى كانوا فيها نياما . . والنائم لا يدرى ما حوله ، ولا يعرف ماذا يحدث . . فلما أفاقوا من غفلة حياتهم الدنيوية تنبهوا إلى المصير الذى هم ذاهبون إليه ، ورأوا مالم يكونوا يرون ، ولكن بعد فوات الأوان .

والنقطة الثانية : هى انه لا موت بعد يوم القيامة . . ذلك انه يؤتى بالموت فيذبح . . فينتهى الموت تماما ، ولا تبقى إلا حياة الخلود .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا الفصل لنبدأ بعد ذلك فى الحديث عن يوم الدين . . ولماذا وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه يوم . . وما مقدار هذا اليوم ؟ . . ومع معنى الزمن ؟

الفصل الرابع

الله.. والزمن

لا توجد حيرة تملأ حياة الناس كحيرتهم بالنسبة للزمن . . ذلك لأنهم عاشوا حياتهم كلها مع الزمن فألفوه . . وحددوا أوقاتهم فى الدنيا بالزمن فلم يعرفوا غيره . . وكان الزمن تأثير مباشر على حياتهم . . فهم يقيسون به أعمارهم ، وهم يقيسون به أحداثهم . . وهم يتخذونه مقياسا للحياة كلها . . فمواعيدهم ولقاءاتهم وانجازاتهم وكل حياتهم مربوطة بالزمن . . يقولون : سنفعل كذا فى يوم كذا . . ويقولون : سنتقابل فى الساعة الثالثة أو الرابعة أو السادسة . . أو فى الشهر القادم . . ويحددون عمر ما يفعلونه بالزمن . . فهذا سيستغرق ثلاثة أشهر . . وهذا يستغرق ثلاث سنوات إلى آخر ما نعرفه جميعا .

بل إن العبادات مرتبطة بالزمن . . فصلاة الفجر مثلا لها وقت . . وصلاة الظهر لها وقت . . وكذلك العصر والمغرب والعشاء . . والحج له زمن أو ميقات معين . . والصوم له زمن أو ميقات معين . .
بل إن الزمن يسيطر على حركة الحياة . . والله سبحانه وتعالى قد خلق النهار للسعى إلى الرزق والعمل . . والليل للسكون والهدوء ليستريح الجسد البشرى ، ويجدد طاقته لعمل اليوم التالى . . وهذا قانون من قوانين الحياة . . فالانسان لا يستطيع أن يعمل ليلا ونهارا . . ولو حاول ذلك خلال أيام قليلة لضاعت قواه ، ولم يستطع العمل .

والله سبحانه وتعالى هو خالق الليل والنهار . . وجعل الليل سكنا . . وجعل آية النهار مشرقة بالشمس . . وفى ذلك يقول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(سورة الاسراء - الآية ١٢)

وهذا ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى أن العين لا تبصر بذاتها .. ولكن لابد أن تدخل إليها أشعة النور لتبصر .. فأنت فى الظلام الدامس لا تستطيع أن تبصر شيئا مهما تكن قوة بصرك .. ولكنك فى ضوء النهار ، أو فى ضوء المصباح ، تستطيع أن ترى .. ولو كان للعين قوة ابصار ذاتية لأبصرت ليلا ونهارا .

والليل والنهار مقياس من مقاييس الزمن .. ولقد ثار جدل كبير حول خلق الليل والنهار ، وأيهما خلق أولا : هل هو الليل أو النهار .. ولقد كان الاعتقاد فى الماضى أن الليل قد جاء أولا ، ثم بعده النهار .. ولكن الله سبحانه وتعالى رد على ذلك ، وصحح هذا المفهوم فى القرآن الكريم ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(سورة يس - الآية ٤٠)

وهنا رد الله سبحانه وتعالى وصحح مفهوما خاطئا كان يقول إن

الليل يسبق النهار . . ورد الله سبحانه وتعالى بأنه لا النهار يسبق الليل ، ولا الليل يسبق النهار . . وهكذا بين الله تبارك وتعالى ان الليل والنهار خلقا فى وقت واحد . . وفى هذا الليل دليل على كروية الأرض ، وعلى دورانها حول نفسها . . فلو أن الأرض كانت مسطحة ، أو مربعة ، أو على أى شكل آخر ، لخلق النهار أولاً ساعة خلق الشمس . . ثم بعد ذلك جاء الليل . . أو لخلق الليل أولاً ، ثم بعد ذلك جاء النهار . . ولكن كون الأرض كروية . فإن النهار والليل يوجدان معا على سطح الأرض . . ودوران الأرض حول نفسها هو سر تعاقب الليل والنهار .

واليوم فى حياة البشر هو فترة من الزمن تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس . . أو من شروق الشمس إلى غروب الشمس . . بعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم . . والبعض الآخر يطلق على الليل والنهار كلمة يوم . . وفى كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن تحدها علامة معينة من شروق الشمس إلى غروبها . . أو من شروق الشمس إلى شروقها فى اليوم التالى .

الـــزمـن لـــه
وجـــود نســـبى

الزمن لا يوجد فى حياة البشر وجودا مطلقا . . بل هو وجود نسبى . . فكل حدث بالنسبة لنا له زمن محدود ، أو ظرف زمان . . وله مكان محدود يقع فيه ، أو ظرف مكان . . وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه . . ولا يوجد فعل فى العرف البشرى يمكن أن يقع إلا فى زمن معين ، ومكان محدد . . ولا نستطيع نحن أن نستوعب هذا الفعل إلا بالزمان والمكان . . فكل إنسان منا له تاريخ ميلاد ومكان ميلاد . . وله تاريخ وفاة ومكان وفاة . . وبغير ذلك لا تفهم الأمور . . فنحن عاجزون عن فهم الأمور على إطلاقها .

والانسان لا يملك الزمن ، ولكن الزمن هو الذى يملكه . . فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى لتغير شيئا قد حدث فيه . . فما حدث قد انتهى وخرج من قدرتك تماما . . ولذلك فإنك إذا كنت قد ارتكبت أى عمل ، كجريمة قتل أو سرقة ، أو أنفقت مالا ، أو تزوجت ، أو أنجبت امرأتك طفلا . . فإنك لا تستطيع أن تعيد الزمن ، وتمحو هذه الأحداث . . حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته ، أو لايوجد الابن الذى أنجبته . . أو تستعيد المال الذى أنفقته . . وكذلك كل الأحداث .

وكما أنك لا تملك القدرة على الماضى ، فإنك لا تملك القدرة على المستقبل . . فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه . . ولا ما سيحدث لك من خير ، حتى تستطيع أن تستزيد منه . . ولا الأخطار التى ستقابلها ، حتى تستطيع أن تستعد لها . . ولكنك لا تملك إلا اللحظة التى تعيشها .

والزمن حجاب من أحجبة الغيب . . خلقه الله سبحانه وتعالى ليحجب عنا الغيب . . كما أن المكان حجاب أيضا من أحجبة الغيب . . وهناك حجاب الزمن الماضى يحجب ما حدث عنك . . حقيقة تستطيع أن تقرأ عنه فى الكتب . . وأن تسمع عنه من الرواة . . ولكن كتب التاريخ مليئة بالمتناقضات . . كل يحاول أن يروى من وجهة نظره وعلى هواه . . ورواة التاريخ مختلفون . . فإذا اختلفت الروايات . . فهل تستطيع أن ترى رؤية العين ما حدث فى الماضى حتى تصل إلى اليقين . . إنك لا تستطيع . لأن الزمن الماضى حجاب للغيب . . فهو غيب لم تره ولن تراه .

وأمن المستقبل أيضا من حجب الغيب . . فأنت لا تستطيع أن تعرف ماذا يحدث غدا . . ولا تستطيع أن تعلم ماذا يحدث فى العالم القادم . . والمكان أيضا من حجب الغيب . . فأنت لا تستطيع أن تعرف وأنت فى مكان محدد ماذا يحدث فى الأماكن الأخرى من الدنيا . . وهكذا كان الزمن من حجب الغيب .

وأنت لا تستطيع أن توقف الزمن ، لأنه ـ كما قلت ـ هو الذى

يملكك وأنت لا تملكه ، وأنت لا تستطيع أن تبقى طفلا ، ولا أن تبقى شابا لا يؤثر فيك الزمن . . ولكنك تنطلق من الطفولة ، إلى الشباب ، إلى الكهولة رغما عنك .

كل ما نملكه .. لحظة

وهكذا لا يملك الانسان إلا اللحظة التى يعيش فيها . . واللحظة التى مضت هى ماض لا يملكه إلا الله . . واللحظة القادمة هى مستقبل لا يملكه إلا الله . . وإرادتك لا تستطيع أن تجعلك طفلا لا ينمو ، أو شابا لا يصيبه الهرم . . أو إنسانا لا يدركه الموت . . فالزمن يمضى ، وأنت تأتى إلى الدنيا فترة محدودة ، وترحل ، وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصححه .

ولذلك إذا قلنا « يوم » فهذا قانون دنيوى . . لا تسيطر عليه أنت . . فترة من الوقت لا تستطيع أن تعيدها . . وإذا نحن استطعنا أن نعرف الزمن بالقوانين البشرية . . فإن الزمن بمعناه المطلق غير موجود ، أى أنه نسبى . . مرتبط بالأحداث ، فهو فترة قياس أحداث معينة تقع . . وبدون هذه الأحداث لا يصبح للزمن معنى ولا وجود .

فمعنى زمن طويل أن الحركة التى حدثت فيه واسعة . . ومعنى

زمن قصير أن الحركة التى حدثت فيه ضيقة وسريعة . . فإذا استعرضت عمرك مثلا . . وقلت إن فترته ستون سنة أو سبعون سنة . . فأنت فى الحقيقة تستعرض أحداثا كثيرة ، وحركة حياة واسعة حدثت . . وإذا قلت : إن هذا الشىء لم يستغرق إلا ثوانى معدودة . . فأنت تستعرض حركة ضيقة وسريعة . . وبدون الحركة لا يكون هناك معنى للزمن . . ولكن ذلك الذى يغفل عن الزمن بنوم أو بموت لا يشعر بالزمن . . وليس الزمن موجودا فى حياته . . فنادرا عندما ينام الانسان أن يستطيع وحده ، دون أن يلجأ إلى ظواهر الزمن كالساعة أو الليل والنهار ، أن يحدد عدد الساعات حين يستيقظ إلا إذا نظر فى الساعة . . ولا يستطيع فاقد الوعى لفترة من الزمن أن يحدد الفترة التى قضاها فاقدا الوعى . . وكذلك لا يستطيع الانسان عندما يموت أن يحدد مدة الزمن التى قضاها فى البرزخ . . ولذلك نجد القرآن الكريم يلفتنا إلى ذلك فى يوم البعث فى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٥٢)

وقوله تعالى :

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون ـ الآيات ١١١ ـ ١١٤)

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة طه - الآيات ١٠٢ - ١٠٤)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا فى القرآن الكريم أن حياتنا فى البرزخ لا تخضع للزمن . . ذلك أننا حين البعث يوم القيامة يسألنا الله سبحانه وتعالى عن المدة التى قضيناها فى البرزخ . . فيقول بعضنا : لبثنا يوما أو بعض يوم . . ويقول المجرمون وهم لا يستطيعون تحديد الزمن ، فبعضهم يقول : إنها عشرة أيام ، وبعضهم يقول : إنها يوم ، وبعضهم يقول إنها ساعة . . ولو كان هناك زمن فى حياة البرزخ لعرف الذين عاشوا فيه كم قضوا . . ولكن عدم علمهم وتخبطهم يبين أن من يموت . . لا يستطيع أن يحدد الزمن الذى يقضيه فى حياة البرزخ . . لأن الزمن لا يقاس إلا بالأحداث .

صورة الزمن .. فى القرآن

على أن هناك صورة أخرى أعطاها الله لنا فى القرآن الكريم هى سورة الكهف الذين لبثوا فى كفهم ثلثمائة سنين . وازدادوا تسعا . .
يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾

(سورة الكهف الآية ١٢)

ويقول الله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ١٩)

فى هذه الآيات يريد الله سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى قوله الكريم :

﴿ ثم بعثناهم ﴾

وقوله تعالى :

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾

أى أن الايقاظ هنا كان إيقاظ بعث كما سيحدث يوم القيامة .. وكان الهدف منه أن يلفتنا الله إلى أننا لن نعلم كم من الزمن قد مر علينا قبل أن نبعث .. ولذلك قال تعالى :

﴿ بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾

أى أن البعث تم حتى يعرفوا أن تأثير الزمن يمكن أن يوقفه الله .. ولذلك حين تساءلوا ، وسألوا بعضهم البعض ، لم يكن عندهم ما يحدد لهم الزمن الذى قضوه خلال فترة النوم .. فحددوه على أساس العادة .. فالانسان عادة لا ينام إلا جزءا من اليوم ، أو على أقصى تقدير يوما بأكمله إذا كان فى غاية الارهاق .. والدليل على أن قولهم صادق بالنسبة لهم ، أنهم لم يروا تأثير الزمن على أجسادهم ، ولا على وجوههم .. بل بعثوا على نفس الهيئة التى ناموا عليها .

لو أن بعضهم مثلا نام ، وشعره أسود ، واستيقظ وقد شاب شعره .. لساعده ذلك على أن يقيس الحدث على مدة نومه .. لو أن أحدهم نام ، وهو شاب ، ثم استيقظ ليجد نفسه كهلا .. فى هذه الحالة كان من الممكن أن يقيس مدة النوم على مدة الحدث .. حينئذ تكون هناك أحداث قد حدثت ، وهى انتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، والحدث هو قياس الزمن .. فكانوا حينئذ ولو بالتقريب يستطيعون أن يحددوا مدة نومهم .. ولكن ماداموا قد استيقظوا على نفس الهيئة التى ناموا عليها .. إذن ففى هذه الحالة يقيسون الحدث بالزمن .. كيف حددوا الحدث .. إنهم استخدموا عادة النوم عند

الانسان . . أو مدة النوم ، أقلها بعض اليوم ، وأكثرها يوم كامل ، لأنه ليس عندهم مقياس للزمن فلا يوجد مقياس للزمن يعيش به الانسان مادام غائبا عن الأحداث .

طلاقة القدرة
توقف الزمن

إذا انتقلنا إلى قصة أخرى أنبأنا القرآن عنها فى قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥٩)

فى هذه الآية يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته فى الكون . . وأن الكون الذى يعمل بالأسباب التى خلقها الله فيه طلاقة القدرة التى هى فوق الأسباب ، فلا يمكن ان تكون الأسباب

وهى من خلق الله ، قيدا على الخالق سبحانه وتعالى .

مر هذا الرجل على قرية خربت بعذاب من الله أو بذنوب أصحابها وفسادهم . . فتعجب ! كيف والأرض قد ماتت وذهبت منها كل آثار الحياة من إنسان وحيوان ونبات . . كيف سيحيى الله هذه الأرض التى ليس فيها أى مقومات للحياة ؟

وحينئذ أرادت مشيئة الله أن تريه هذا بالتجربة ، وأن يلفتنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه . . ولما استيقظ وعادت الحياة إليه ، لم يكن فيه شىء قد تغير . . بل استيقظ على نفس الهيئة التى مات عليها . . استيقظ شابا قويا لا شىء حوله يستطيع أن يقيس عليه الزمن . . وحينئذ سأله الله : كم لبثت ؟ فقال قياسا على عادة النوم عن الانسان . وربما أكون قد نمت يوما ، وربما نمت بعض اليوم . . ولذلك كان صادقا مع نفسه حين قال : لبثت يوما أو بعض يوم . . حينئذ أنبأه الله سبحانه وتعالى أنه قد لبث مائة عام . . ولكى يعطيه الدليل المادى على ذلك قال :

﴿فانظر إلى طعامك وشرابك﴾

فوجد الطعام لم يتغير . . ثم طلب الله منه أن ينظر إلى حماره . . فوجد أن الحمار قد مات ، ولم يبق منه إلا عظاما نخرة . . أى أنه مات . . ثم تعفن ، ثم تحلل ، حتى أصبح عظاما نخرة ، فقال : إن ذلك لا يمكن أن يحدث فى يوم واحد . . بل لابد له من فترة طويلة . . فلما تبين له ذلك أعطاه الله آية بأن جعله يشهد عودة

العظام النخرة ، وعودة الحياة إلى حماره .. فقال الرجل :

﴿ أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾

ولقد كان مرور الزمن على الحمار وتوقف الزمن عن الطعام .. آية بأن الله سبحانه وتعالى يستطيع بطلاقة قدرته أن يجعل الزمن يمضى أو يقف . بذلك قد وصلنا إلى أن مقياس الزمن هو الأحداث التى تقع فيه .. وأن الانسان إذا كان فاقد الوعى ، أو فى حياة البرزخ ، لا يستطيع أن يحدد الزمن .. وهنا يقف الزمن .. أى لا يكون هناك زمن ..

إذن فالزمن شيء نسبى فى الحياة .. وهو كما لا نحس به عندما ننام ، ولا نستطيع أن نحدده .. كذلك فى حياتنا فى البرزخ لا نستطيع أن نحدد الزمن ، لأنه لا زمن فى هذه الحياة .

ما معنى يوم القيامة

ننتقل بعد ذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى أطلق على البعث ووصفه بأنه يوم ، فقال سبحانه وتعالى : يوم القيامة .. ويوم الدين .. وكلمة يوم يمكن أن تؤخذ بأنها موعد . غير أن بعض الناس يتساءلون : كيف يمكن أن يطلق الله لفظ يوم وهو لا يحده زمان ولا مكان .. وليس هناك زمن .

إن هذا الاطلاق له أكثر من معنى . . فيمكن أن نقول إن هذا تنبيه بأن الحساب سيمضى بلا توقف . . بمعنى أنه لن يتوقف الحساب ليستريح الناس ويناموا . . ثم يستأنف فى اليوم التالى كما يحدث فى عالمنا البشرى . . ويقرب الله هذا إلى أذهاننا فيطلق اسم يوم . . على أساس أن العمل يستمر طوال النهار ثم يتوقف ليلا .

ولكن الذى يجب أن نفهمه أن كلمة يوم عند الله لا يحدها زمان . . أو لا يحدها وقت . . الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحج ـ الآية ٤٧)

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة المعارج ـ الآية ٤)

وأمام هاتين الآيتين لابد أن نتوقف قليلا . . كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مدته مرة ألف سنة ؟ ومرة خمسون ألف سنة ؟ . . وأى مقياس لليوم عند الله . . هل يوم القيامة يساوى يوما من أيام الدنيا . . أو يساوى ألف سنة ـ أو يساوى خمسين ألف سنة ـ إن ذلك يلفتنا إلى حقيقة هامة . . تفهمنا معنى اليوم فى استخدامه مع يوم القيامة .

إذا أردنا أن نعرف المعنى المطلق للزمن ، فإنه كما قلنا لا يوجد معنى مطلق .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الزمن .. ولذلك فإنه يستطيع أن يخلق يوما مقداره ساعة .. ويوما كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة .. ويوم مقداره ألف سنة .. ويوما مقداره خمسون ألف سنة .. ويوما مقداره مليون سنة .. فذلك خاضع لمشيئة الله .

ويوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى .. بأحداثه كلها .. بجنته وناره .. وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه .. وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون ويخرج من علمه إلى علم مخلوقاته .. سواء كانوا من الملائكة أو البشر أو الجان .. يقول الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم :

﴿ كـن . ﴾

فيخرج من علمه إلى علم خلقه .. أو يخرج من علم الله الأزلى ، إلى علم غير الله المحدود .. والله سبحانه وتعالى لا يحده يوم ولا زمان ، ولا مكان .. ولكنه إذا قال هذا يوم الدين .. كان ذلك يوم الدين .. فإذا أراده الله أن يحدث فى هذه الدقيقة ، حدث فى هذه الدقيقة .. وإن أراده يحدثه بعد ألف عام ، يحدث بعد ألف عام .. وإن أراده أن يظهره بعد مليون سنة ، حدث بعد مليون سنة .. فيوم الدين موجود فى علم الله بكل مواصفاته من زمان

ومكان ، وطريقة بعث وحشر ، وطريقة حساب وجنة ونار . . كل هذا فى علم الله . . والله وحده هو خالق هذا اليوم . . وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده .

اليوم فى حياة البشر

ونحن إذا قلنا « يوم » بمنطق البشر فهذا قانون دنيوى . . يحكمنا ولا نحكمه . . يسيطر علينا ولا نسيطر عليه . . حقبة من الزمن تمر ، سواء أردنا أو لم نرد بأحداثها ووقائعها ، وكل ما يتم فيها . . هذا هو المنطق البشرى . . ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذه القوانين كلها . . انه هو خالقها يأمرها فتطيع .

إذن فيوم الدين يتم بمقاييس الله سبحانه وتعالى يضعها هو بزمن يخلقه فى موعده . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا باختلاف المقاييس فى الآخرة عن مقاييس الدنيا . . فكما أننا قد بينا أن القوانين تختلف بين النائم والمستيقظ . . فإن القوانين أيضا تختلف يوم القيامة . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى ألا نأخذ شيئا فى يوم القيامة بمقاييس الدنيا . . فنحن سنرى ما كان محجوبا عنا . . وسنشهد مالم نشهده فى حياتنا الدنيوية . . وستكون هناك أحداث تقع لم نكن نتخيل أنها موجودة . . ولذلك إذا أراد الله أن يخلق يوما كيوم القيامة مقداره ألف عام لاستطاع . . ولو أراد أن يفرق بين هذا

بأن يجعله مليون سنة ، فإن ذلك يحدث . . إذن
اليوم وغيره . . فلا نأخذ نحن ، ولا نحاول أن نحدد مقاييس يوم القيامة بمقاييسنا
الأرضية . . بل علينا أن نبتعد عن ذلك تماما . . ولنأخذ تحديد الله
لليوم بأنه الفترة التى يقتضيها حساب الناس جميعا . . أى أنها فترة
أحداثها تبدأ بالبعث . . وتنتهى بانتهاء محاسبة الخلق . وبقدر ما شاء
الله لهذه الأحداث أن تمتد ، فذلك هو يوم القيامة . . الذى يحدده
بداية ونهاية هو البعث من القبور ونهاية الحساب . . هل يتم ذلك فى
ساعة أو فى مليون سنة . . لا أحد يستطيع أن يحدد لأن مشيئة الله
سبحانه وتعالى هى التى تحدد ذلك اليوم .

وكما اننا قد عرفنا اننا نغيب عن الزمن بحيث يبعث الذين ماتوا
منذ بداية عمر حياة الانسان . . فلا يعرفون كم قضوا فى البرزخ . .
ويقولون انه يوم أو بعض يوم . . مع انه قد يمتد بحسابنا البشرى إلى
مئات الألوف من السنين . . وربما ملايين السنين . . فكذلك يوم
القيامة لا تحده المقاييس التى نعيش بها . . ولا قدرات الدنيا . .

بعض العلماء يقول : ان الناس فى الآخرة سيتعرضون لأهوال ،
ويرون أشياء لم يكونوا يرونها كالملائكة والشياطين . . بل إن الناس
سيرون من كان قبلهم فى الدنيا ، ومن أتى إليها بعدهم . . وهؤلاء
وهؤلاء لم يكونوا قد رأوهم من قبل . . نقول : إننا لا نريد أن
نتجاوز ، لأن يوم القيامة ينتهى فيه إلف الحياة الدنيا . . أى ما ألفنا
فى الدنيا كالليل والنهار والبحار والجبال والنجوم والشمس والقمر

كل هذا سيختفى وسينتهى . ونحن سنخرج من هذه الأرض ، ثم بعد ذلك نحشر فى أرض المعاد . . ولكن ما قضينا معه عمرنا . . كل هذا سينتهى تماما . . وذلك إذا تنبهنا لعلامات القيامة فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

(سورة الانفطار ـ الآيات ١ ـ ٤)

وقوله تعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾

(سورة التكوير ـ الآيات ١ ـ ٦)

إذن فكل الحياة التى ألفناها من شمس وبحار وجبال ونجوم ستختفى وتنتهى تماما . . وكل المقاييس الدنيوية ستزول . . ولا يمكن لنا أن نستخدم مقياسا دنيويا مما ألفناه فى مقاييس الآخرة .

نكون هنا قد وصلنا إلى توضيح معنى اليوم . . وقد شاءت رحمة

الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى القرآن الكريم من المعانى التى تقرب إلى أذهاننا ما هو غيب عنا ، وذلك رحمة بعقولنا .. وحتى لا تتيه وتضيع .

وانتهت الأسباب فلا تعمل

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه مالك يوم الدين .. ومالك الشىء هو المتصرف فيه وحده .. ليس هناك دخل لأى فرد آخر فيه .. أنا أملك عباءتى : وأملك متاعى ، وأملك منزلى .. وأنا المتصرف فى هذا كله وحدى .. والذى أحكم فيه جميعه .. فمالك يوم الدين معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب أى أن كل شىء سيأتى من الله مباشرة .. بدون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهرا .. ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس .. ويولى بعض الناس ظاهرا أمر بعض .. ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر .. الأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يقول الله فى وصف يوم الدين :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الانفطار ـ الآية ١٩)

لقد خلق الله الأسباب فى الدنيا لتمضى بها الحياة . . ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب ، والأمر مباشر من الله .

والملك فى ظاهر الدنيا يهبه الله لمن يشاء ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ٢٦)

ولعل كلمة « تنزع » التى استخدمها الله سبحانه وتعالى تلفتنا إلى أن أحدا فى الدنيا لا يرحب ولا يريد أن يترك الملك . . ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعا . . أى رغما عنه ، ورغما عن إرادته . . والله هو الذى ينزع الملك ممن يشاء .

ولعل بعض الناس يتساءل : هل الملك فى الدنيا والآخرة ليس لله ؟ . . نقول . . الأمر فى كل وقت لله . . ولكن الله قد استخلف بعض خلقه . . أو مكنهم من ملك فى الأرض . . فجعل لهم ملكا ظاهريا . . ومعنى ذلك أنه ملك ظاهر للناس فقط على انه للبشر . . ولكنه فى حقيقته ليس نابعا من ذات من يملك . . ولكنه نابع من أمر الله . . ولو انه كان نابعا من ذاتيه من يملك وقدراته لبقى له . . ولم ينتزع منه . . ولكن انتزاع الملك ممن يملك دليل على انه لا يملكه بذاته وقدراته ، ولكنه مستخلف فيه بأمر الله . . ولهذا حكمة . . فالملك الظاهر يمتحن فيه العباد . . يمتحن فيه من يملك ، لأن الله سبحانه

وتعالى يحاسبه يوم القيامة على كيف تصرف فى ملكه واداره . . وهل طبق فى ذلك منهج الله أم انطلق يفسد فى الأرض . . ويمتحن فيه الناس . . هل سكتوا على الحاكم الظالم ؟ . . وهل استكانوا للظلم ؟ . . وهل استحبوا المعصية ؟ أم أنهم وقفوا مع الحق وضد الظلم ؟ . . وهو لا يمتحن هؤلاء لأنه لا يعلم المصلح منهم من المفسد . . ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيدا على نفسه ، حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة . . ويقول يارب : أنك أعطيتنى الملك لا تبعث الطريق السوى ولطبقت منهجك . . ولكن حتى لا يجادل إنسان ، ويكون كل شخص شهيدا على نفسه يوم القيامة . خلق الله الأسباب فى الدنيا ، وخلق الملك الظاهرى .

علـــم الله ..
وأحـــدأث الـدنيـــا

ويعض الناس يتساءل عما إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء ، فهل هو محتاج لأن يمتحننا فى الدنيا ؟ . . والجواب طبعا لا . . ولكننا إذا أردنا أن نضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان ، ولله المثل الأعلى ، نقول إن الجامعات فى كل أنحاء الدنيا تقيم الامتحانات لُطلابها . . فهل أساتذة الجامعة يجهلون ما يعرفه الطالب ، ويريدون أن يحصلوا منه على العلم ؟ . . طبعا لا . . ولكن ذلك يحدث . حتى إذا رسب الطالب فى الامتحان ، وجاء

يجادل ، واجهوه بإجاباته فيسكت . . ولو انه لم يعقد مثل هذا الامتحان . . لا دعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف . . ولو لم يجعل الله الملك ظاهريا فى الأرض . . ويجعل فى ظاهر الأشياء أن هذا يعطى وهذا يمنع . . وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير . . وهذا يستطيع أن يأخذه منك . . لما اندفع ضعاف النفوس من الناس لارضاء البشر على حساب الله . . ولما وجد الاغراء بالمعصية ، واستحق الناس الذين يلتزمون منهج الله دخول الجنة .

إذن فظاهر الأشياء فى الدنيا تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا من أنها امتحان يمر به الانسان . . ليوصله إلى الجنة ، أو إلى النار . . أما فى الآخرة فظاهر الملك يختفى ، والأسباب تختفى ، ولا يملك إنسان لانسان أمرا ولو كان ذلك ظاهرا .

إلى هنا نكون قد تحدثنا عن معنى الزمن ، ومعنى يوم الدين . . والاختلاف بين قوانين الدنيا ، وقوانين البرزخ ، وقوانين الآخرة . . ونبدأ فى الحديث عن علامات الآخرة . . أو علامات الساعة التى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتى تحققت .

الفصل الخامس

علامات الساعة

رسول الله صلى الله عليه وسلم له نبوءات كثيرة عن اقتراب الآخرة . . وهذه النبوءات . . تحقق معظمها ، وأصبح واقعا نعيش فيه بعد أن كان غيبا عمن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاشوا معه . . ونحن نصدق هذه النبوءات جميعا ، ما تتحقق منها مل ومالم يتحقق ، لأنه مادام رسول الله قد قال ، وهو الصادق الأمين ، نى فلابد أنها هى الحق .

ولقد كشف الله من غيبه لرسوله الكثير . . وأطلعه على ما هو قادم ، ولكن ليس معنى هذا أن يدعى أحد أنه يعرف الغيب . . ذلك أن تلك خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده . . فهو موحى إليه من السماء . . وقد أسرى به إلى سدرة المنتهى ، وأطلع ورأى وعرف أشياء لم يطلع عليها غيره .

وإذا كنا نتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإنه رسول آخر الزمان . . ومعنى ذلك أنه الرسول الخاتم الذى لن يأتى رسول بعده حتى يوم القيامة . . ومعنى ذلك أيضا أن رسالته تستمر فى الأرض إلى آخر يوم من أيام الزمن . . والزمن ـ كما قلنا ـ مقياس أرض ينتهى بانتهاء الدنيا .

وهناك نبوءات لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحداث قريبة وقعت بعد وفاته . . فقد تنبأ بانتشار الدولة الاسلامية شرقا وغربا . . وقامت الدولة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها . . ولم تمتد شمالا إلى أوربا ولا جنوبا . . وتنبأ بواقعه الجمل ، كما تنبأ بمقتل

الحسين وغير ذلك .. ولكننا لن نتعرض للنبوءات القريبة التى تحققت .. وإنما ستتعرض للنبوءات التى تحققت فى هذا الزمان .. أو على وجه الدقة لبعض هذه النبوءات ، لأن المجال لا يتسع لها كلها .

عندما ترى هوى متبعا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا رأيت هوى متبعا ، وشحا مطاعا ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فانتظر الساعة) .

هنا فى هذا الحديث ثلاثة أشياء : أولها الهوى المتبع .. ما معنى الهوى المتبع ؟ .. لقد أنزل الله سبحانه وتعالى للناس منهجا يحكم حركة حياتهم .. ومنهج الله هو الذى ينبغى أن يسود إذا أرادت البشرية أن تحصل على الحياة الآمنة المنسجمة فى الأرض .

ولقد طبق المسلمون الأوائل منهج الله .. فسادت الحضارة الاسلامية العالم أكثر من ألف سنة .. وقادت الحضارة والعلم ، وكان الرقى والتقدم والازدهار للمسلمين وحدهم المتبعين لمنهج الله .

ثم بدأ المسلمون يبتعدون عن المنهج وعن تطبيقه .. لأن الدنيا اجتذبتهم .. وأصبح لكل واحد منهم هوى فى الدنيا .. رغبة

تناقض منهج الله وتنقضه ، ولكنه يفعلها ليرضى أهواء نفسه . . ويحقق منافع ذاتية لذاته . . فكل واحد فى الدنيا يريد المال . . والله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا للمال . . بأن ما يأتى منه عن طريق حركة الحياة يكون هو الحلال . . أى ما يتأتى منه بالعمل ، سواء أكان ذلك عملا مباشرا ، أم عن طريق المشاركة ، ولكن الناس تريد المال بلا عمل . . وهذا مناقض لمنهج الله .

ولكى يحقق الناس هذا النفع الذاتى نقضوا منهج الله . . وأصبح الواحد منهم يتفنن فى الحصول على المال الحرام . . إما بالسرقة ، أو بالنصب ، أو بالتحايل ، أو بفعل ما يغضب الله . . هذا نوع من الهوى المتبع .

نوع آخر . . الانسان يريد أن يعتدى على حرمات غيره ليحقق لذاته متعة وقتية . . والله يحرم ذلك . . ومنهج الله لا يقره . . وهنا يدخل الهوى المتبع . . فبدلا من أن يطبق الناس منهج الله ، ويغضوا أبصارهم انطلقوا وراء شهواتهم ، ونقضوا منهج الله لحركة الحياة .

إذن لم يصبح منهج الله هو الذى يحكم . . ويرجع الناس إليه فى افعل ولا تفعل . . بل أصبح ما يريد أن يحققه كل إنسان لذاته هو الذى يحكم . . وفى هذه الحالة ينسى الناس التكليف ، ويبتعدون عنه ، ويجعلونه وراء ظهورهم ، ولم يعد يسيطر على حركة الحياة فى الدنيا إلا هوى النفس . . وأصبح أى إنسان يستبيح أى شىء ، وأى عمل فى حركة الحياة ليحقق لنفسه مالا أو نفعا . . ومادام هوى

إذن يكون الخلاف هو السائد .. ونكون قد نقضنا منهج الايمان .. لأنه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .. وإذا اصطدمت أهواء الناس فى الحياة .. تفسد الحياة الدنيا .. لأننا فى هذه الحالة نخضع الحق للهوى .. أى يكون الحق فى يدنا لعبة نشكلها كما نشاء ، بحيث تحقق لنا ما نريد .. وينطبق علينا قول الله سبحانه وتعالى :

النفس هو الذى يحكم الحياة ، وليس منهج الله .. تصبح حركة الحياة متعاندة .. وصراع الحياة مريرا .. هذا يريد ، وهذا يريد ، ولا تتفق النفوس أبدا .. ويشقى الانسان فى الأرض . لأن حركة الحياة لا تستقيم إلا إذا كان هناك أمر تصونه ويصونك .. ونجتمع عليه جميعا .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(سورة المؤمنون - الآية ٧١)

لماذا ؟ لأن هوى كل واحد منا مخالف لهوى الآخر .. ولكن الحق واحد لا يتغير .. ومن هنا فهذا يريد .. وهذا يغير .. وهذا يغير .. وما جاء الدين إلا لعصمة حركة الحياة من أهواء الناس حتى يكون هناك حق واحد ، فنتجه جميعا إلى عمل لا يتعارض .. ولكن يتعاضد .. أى يكمل بعضه بعضا .. ويتساند ، أى يقف بعضه مع بعض حتى تستقيم الدنيا .

فإذا رأيت هوى متبعا .. فاعلم أن منهج الله لا يحكم حياة الانسان فى الكون ، وعندئذ انتظر الساعة .

ما هو ..
الشح المطاع ؟

الأمر الثانى حين ترى شحا مطاعا .. والشح هو البخل .. ومعنى ذلك بخل النفس عن أن تعطى .. وفى هذه الحالة تحدث النفس صاحبها أنه لو انفق لذهب ماله .. واغواء الشيطان فى هذه الحالة يكون هو الغالب والحاكم على سلوك الانسان ، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٦٨)

يبخل الناس بما لهم فلا ينفقونه فى سبيل الله ، ولا يعطونه للفقير والمحتاج .. ولا ينفقونه فيما ينفع الناس .. وحينئذ يختل المقياس الاقتصادى .. ويصبح هناك غنى فاحش ، وفقر مدقع .

ولابد أن نتنبه إلى أن شح الحياة ليس معناه الشح المالى فقط ..

ولكن معناه العام . . شح أو بخل كل ذى قدرة بقدرته وجهده . . فتجد العامل يستطيع أن يعمل ، ولكنه لا يعمل . . والموظف يستطيع أن ينتج ، ولكنه لا ينتج . . وكل عمل فيه جهد يبخل العاملون فيه بجهدهم . . فهناك بخل من ذى القدرة بجهده . . وبخل من ذى العلم بعلمه . . أى أن العامل أو المعلم أو الأستاذ قد يملك العلم الكثير والغزير . . ولكنه يبخل أن ينقل هذا العلم إلى طلبته . . أو إلى من يدرسون العلم على يديه . . بل لا يعطيهم من علمه إلا قدرا بسيطا جدا . . وشح ذى الجاه بجاهه . . أى أن الانسان يكون فى مجتمعه مسموع الكلمة ، مطاع الأمر . . ولكنه يرفض أن يستخدم ما وهبه الله له من هذا الجاه فى مساعدة المحتاجين . . أو فى انصاف المظلومين . . أو فى تمكين الضعفاء من حقوقهم . . فيأتى إليه المحتاج ، وهو يستطيع أن يقضى له حاجته بكلمة واحدة . . ولكنه لا يفعل . . بل يتركه بدون أن يقضى له حاجته . . ويأتى إليه المظلوم . . ويعرف ذو الجاه أن هذا المظلوم قد وقع عليه ظلم . . وهو يستطيع بكلمة واحدة أن يزيل هذا الظلم ، ولكنه لا يفعل . . ويظل المظلوم يرجو ، وذو الجاه أو السلطان لا يفعل شيئا . . ويأتى الضعيف إلى صاحب الجاه يطلب منه أن يمكنه من حقه ، ويستطيع صاحب الجاه أن يفعل . . ربما بتوقيع صغير منه يستطيع أن يعيد لهذا الضعيف حقه ، ولكنه لا يفعل .

وهكذا فى كل أوجه الحياة تجد شحا مطاعا . . فكل إنسان يبخل بجهده على غيره ، حتى ولو كان هذا الجهد لا يكلفه شيئا . . وأقل

الشح هو شح المال .. وأكثر الشح ضررا هو شح النفس فى أن كل إنسان لا يعطى المجتمع الذى يعيش فيه ما عنده .

وبذلك يتدهور المجتمع ، وتزداد مشاكل الناس تعقيدا .. ولا توجد لها الحلول .. فمادام الشح المطاع هو الذى يحكم .. فالمجتمع كله ينحدر بسرعة إلى هاوية عميقة .. حتى لو وجدت أقلية تعطى ما عندها من مال وعلم وجاه إلى آخره .. فإن الأكثرية التى لا تعطى تفسد جهود الأقلية التى تعطى ، وتجعلها جهودا غير مؤثرة .

حديث القرآن عن الشح

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا فى القرآن الكريم مسألة الشح فى ثلاث آيات .. فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء ـ الآية ١٢٨)

وقال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(سورة الحشر - الآية ٩)

وقال تعالى :

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن - ١٦)

وهكذا نرى فى الآيات الثلاث أن الشح لا ينطبق على المال فقط . . ولكنه ينطبق على كل نشاطات الحياة . . ففى الآية الأولى ينطبق على المعاملة مع الزوجة ،وعلاقة الزوج بها . . والله سبحانه وتعالى يطالبنا فى علاقتنا بالسماح وليس بالتشدد . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا اقتضى » .

والآية الثانية فى سورة الحشر يبين الله سبحانه وتعالى فيها السماحة التى لابد أن تقوم فى المجتمع الاسلامى . . تلك السماحة التى تقيم

المجتمع على أساس المحبة . . وقد نزلت هذه الآية فى الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . . وتركوا أزواجهم وأولادهم ، وكل ما يملكونه فى مكة .

انظر إلى السماحة فى هذا الظرف غير العادى ، أو هذا الظرف القهرى . . مجموعة تملك كل شىء . . ومجموعة ليس لديها شىء ، حتى الزوجات أو النساء . . والرجل قد يفرط فى شىء . وقد يعطى من كل شىء : من ماله وعلمه وجهده . . ولكن لو وصلت المسألة إلى الزوجة ، أو الزوجات ، فإنها فى هذه الحالة تكون شديدة جدا على النفس . . ولكن الأنصار كان الواحد يذهب إلى أحد المهاجرين ، ويقول له : هذا مالى فخذ نصفه . وهذه دارى نقتسمها معا . . وهؤلاء زوجاتى انظر إليهن . . أحبهن إلى نفسك أطلقها وتتزوجها .

وهكذا وصل العطاء فى هذا الظرف غير العادى إلى حدود غير عادية . . ولكن ذلك تم حتى لا يكون المجتمع الاسلامى بادئا بمجتمع فيه فقر مدقع ، وغنى فاحش . . فيه متزوجون ورجال بلا زوجات ، فقد تشيع الفاحشة . . وألا يقوم هذا المجتمع على الحقد ، لأن من لا يملك سيحقد على من يملك .

والآية الثالثة فى الايمان والتقوى . . وذلك حتى يعطى الانسان الطاقة التى يستطيعها للايمان والعبادة ، ولا يكون شحيحا فى صلاته . . يقول : سأصلى الفرض وحده ، ولن أصلى السنة . .

أو شحيحا فى زكاته وصدقته . . فيقول ، وهو يملك الكثير ، لن أخرج من زكاة المال إلا ما هو مفروض بدون أن أزيد عليه قرشا واحدا . . وكذلك فى كل متطلبات الايمان من الله سبحانه وتعالى . . يعد الله بالأجر العظيم من يزيدون فيها ولا يبخلون . . بشرط أن تكون الزيادة من جنس ما فرض من العبادة . .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أن الله سيسأل الناس يوم القيامة عما فعلوه بالمال الذى وهبهم إياه . . وبالعلم الذى أعطاه لهم . . وبالجاه والسلطان الذى جعلهم مستخلفين فيه . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه) .

على أننا لابد أن نتساءل : لماذا يكون الشح المطاع نقضا لمنهج الله فى الأرض ؟ . . لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل للبشرية حضارة وتقدما . . وهذه الحضارة والتقدم لايتمان إلا إذا أعطى كل جيل كل ما عنده للجيل الذى بعده . . وحينئذ يبدأ الجيل الجديد من النقطة التى انتهى إليها الجيل الذى قبله . . ثم يضيف إليه .

وعدم عطاء أى جيل كل تقدم فى الحياة للجيل الذى بعده سيوقف تقدم الحضارة والعلم . . ويؤثر على تقدم البشرية كلها . . والله قد وضع منهجا يحقق تقدم الانسان فى الحياة ورقيها . . وشح النفس يمنع

تطبيق هذا المنهج وينقضه .

إعجاب صاحب الرأى برأيه ..

والأمر الثالث إعجاب كل ذى رأى برأيه . . ما هو الرأى ؟ . . الرأى هو الذى يمثل هوى النفس الداخلى . . أى ما تخفيه فى نفسك من أهواء وأطماع ولا تعلنه للناس . . ولكنك تصل على تحقيقه بأراء تبديها . . تحاول أن تضع فى ظاهرها المصلحة العامة . . بينما هى فى الحقيقة محاولة لتحقيق ما تخفيه من أغراض . . حينئذ تختلف الآراء فى الشىء الواحد . . فيصبح لهذا رأى ولهذا رأى . . ولهذا رأى . . وكل الآراء التى تسمعها هى آراء بعيدة عن الحق والحقيقة . . وكل إنسان متمسك برأيه يحاول أن يدافع عنه دفاعا مستميتا . . وفى هذه الحالة عندما تختلف الآراء لا تعرف أين الحق .

ولا يلتفت كل هؤلاء الذين يدلون بآرائهم إلى رأى المشرع ، ولا رأى منهج الله . . بل يصبح كل تشريع يطبق على أساس المطامع التى يخفيها كل إنسان فى صدره . . والتشريع الواحد يطبق مئات التطبيقات المتعارضة المتناقضة . . وكل من يطبق متمسك برأيه . . معتز به .

حينئذ تتعاند حركة الحياة وتصطدم . . ويصبح الناس فى فوضى

لا يعرفون ماذا يفعلون . . الشيء محدد . . ولكن الأغراض التى يخفيها الناس فى صدورهم ، ويحاولون تحقيقها عن طريقه ، متناقضة ومتباعدة . . بحيث تجعل حركة الحياة نفسها لا تستقيم ولا تعتدل .

وإذا نظرنا إلى ما يحدث الآن . . نجد أننا فى بعض الأحيان نرى أناسا يعرفون أن الرأى الذى يقال هو الحق . . ومع ذلك فانهم مع اعجابهم برأيهم ينقضون هذا الحق برأى باطل . . ومع أنهم يعرفون أن هذا الرأى الذى يقولونه باطل ، إلا أنهم يتمسكون به ، ويدافعون عنه زهوا واعجابا . . بأن الرأى الذى سيؤخذ به هو رأيهم هم ، مهما يكن رأيهم مخالفا للحقيقة ، ومتصادما مع الحق .

بل انهم يفاخرون بعد أن تنتهى الجلسة وتنفض . . بأنهم قد استطاعوا أن يفرضوا رأيهم على غيرهم . . ويقولون زهوا : لقد أخذ الجميع برأينا . . وقد يقضى موظف كبير برأى ما . فإذا جاء من هو أقل منه فى المنصب ، وأبدى رأيا مخالفا يتفق مع الحق . . فإن هذا الموظف الكبير يرفض الرجوع عن رأيه مع أنه باطل ، ويصر عليه وعلى تنفيذه . .

وهكذا يضيع الحق فى الدنيا بين إعجاب كل ذى رأى برأيه . . ويصبح ما يتخذ من قرارات أو قوانين لا يمثل الحق . . ولكنه متخذ من آراء تتمسك بالباطل ، وتعتز بالإثم . . فلا يحكم الحق الدنيا . . والله سبحانه وتعالى . . يريد أن يكون الحق هو الحاكم .

عندما تلد الأمة ربتها

ومن علامات الساعة التى أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها هى (أن تلد الأمة ربتها) . . ولقد فسر هذا الحديث تفسيرات كثيرة ، فقالوا : إن معناه أن يتعلم أولاد الفقراء ، ويصبحوا من ذوى المناصب الهامة ، فتتنكر الابنة لأمها . . وتجد أنه من العار أن تعترف أنها ابنة هذه الأم فتجعلها خادمة عندها . . وقيل إن المقصود به أن الابنة إذا تزوجت رجلا غنيا أصبحت أمها خادمة عندها .

ولكننى أعتقد أن هناك تفسيرا آخر لهذا الحديث . . فمعنى أن تلد الأمة ربتها هى أن تصبح الابنة هى الأمرة الحاكمة فى البيت . . تفرض رأيها على أمها وأبيها ، ولا يجرؤان إلا أن يطيعاها . . والمفروض فى الابنة بالذات أن تكون طيعة لوالديها ، وأن تفعل ما يأمرانها . . ولكن الأمر انقلب . فبدلا من أن تكون الأم هى سيدة البيت . . ورأيها هو الذى ينفذ ويطاع . . تصبح الابنة هى سيدة البيت . . وأمرها هو النافذ . . والأم والأب عاجزان عن أن يفعلا شيئا .

بل إن الأمر قد يصل إلى نوع من التحدى . . تفرض فيه الابنة إرادتها حتى فيما يغضب الله ، وتتحدى بذلك أمها وأباها . . ونحن نرى أن هذا قد أصبح سمة من سمات الحياة الآن . . فالابنة هى

ربة الأم . . والأم لا تملك إلا أن تطيع ولو مكرهة . . وهذا فى رأيى معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات الساعة (ان تلد الأمة ربتها) . . أى أن الابنة أصبحت لها ولاية والأم من رعيتها .

تطاول الحفاة العراة

ومن علامات الساعة ، كما أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتطاول الحفاة العراة فى البنيان . . أى أنه يأتى زمن يكون المال فى يد بعض الناس الذين تراهم فتعتقد أن أحدهم فقير لا يملك شيئا من صورته وهندامه . . ولكنك تفاجأ بأنه يملك المال الكثير . . وعادة مثل هؤلاء الناس عندما يأتيهم المال من كل مكان . . فإن عقلهم لا ينصرف إلا لبناء العمارات وتملكها . . هم يقوّمون أنفسهم بما يملكون من عقارات ، لأنهم عادة لا تكون لهم ثقافة ولا علم يصنع لهم مكانة فى المجتمع . . فلا يستطيعون بعلمهم أو ثقافتهم أن يحصلوا على احترام الناس . . ولا بنسبهم وعائلاتهم . . ولا يكون أمامهم أن يحصلوا على منزلة فى المجتمع إلا بالبنيان أو العمارات التى يمتلكونها ويفاخرون بها . . وتكون هى سندهم الوحيد فى محاولة أن يصلوا إلى طموحاتهم فى الدنيا .

على أن هناك معنى آخر لابد أن نلتفت إليه .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق البدو والحضر .. أو المدينة والريف .. لحكمة فى الحياة .. والله يريد حضرا فيه كل المقومات الحضرية ، أو مقومات المدنية من بنيان عال ، وحركة حياة مزدحمة ، إلى آخر صفات الحضارة أو المدنية التى نعرفها .. وفى نفس الوقت يريد بادية أو ريفا له كل مقومات البادية أو الريف .. والحضارة البدوية أو الريفية لها دور هام فى الراحة النفسية .. فنجد أن أى إنسان يعيش فى المدينة لا يستريح إلا إذا ذهب بعض الوقت إلى مكان خلوى أو مزارع ليقضى بها جزءا من وقته بعيدا عن حضارة المدينة وزحامها وضجيجها .. فالنفس البشرية لا ترتاح إلا فى المكان الذى فيه فطرة الحياة بدون حضارة البشر .

والله سبحانه وتعالى يريد حياة متكاملة متساوية .. ذلك أن ملكات الانسان متساوية ، لا تطغى فيها ملكة على ملكة .. وهو لا يستطيع أن يستغنى فى حياته عن تلك الأماكن التى فيها فطرة الله وحدها .

يأتى زمن يتحول فيه الاجراء فى البادية أو الريف إلى ملاك للمال .. ويصبح المال فى أيديهم كثيرا .. وكانوا من قبل معدمين .. حينئذ لا تكون طموحاتهم فى أن يزيدوا الريف أو البادية جمالا فطريا .. بل إنهم يفسدونه بكثرة البنيان حتى أصبح الريف كالحضر من كثرة البنيان فيه .. ويتم هذا عشوائيا وبدون تخطيط

يساعد على إبقاء جمال الريف أو البادية ، الذى وهبه الله لها . . بل يتم كل ذلك بصورة دميمة . . تجعل هذه الأماكن بعد أن كانت لراحة النفس البشرية مصدر تعب لها . . ولا يجد الانسان مكانا يذهب إليه ليستريح فيه .

حينئذ نجد أن الذين كانوا من فقراء أهل الريف أو البادية ويعملون فيها ، يتركون عملهم . . لأنهم تعالوا فى البنيان . . وتصبح الأرض لا تجد من يزرعها . . ويزيد هذا من قبح الريف أو البادية ، لأنها تصبح مهجورة . . وبذلك تختل ملكات الانسان ، لأنه لا يجد مكانا يستريح فيه ، وهذه العملية تتم بالتدريج وعلى مر الزمن .

ومن علامات القيامة أيضا التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (النساء الكاسيات العاريات) . . وهذا ما نراه حولنا الآن . . فعدد من النساء يظهرن من أجسادهن أكثر مما يسترن منها . . والله سبحانه وتعالى أمرهن بأن يسترن أجسادهن وحدد ما يكشف بالوجه والكفين . . وهذا يرجع إلى أن الناس يبتعدون عن دينهم . . ولم يعد الدين حاكما لحركة الحياة ، ولا تصرفات البشر ، كما كان يجب أن يكون .

إعطاء الشيء لغير أهله

ومن علامات الساعة (أن يعطى الشيء لغير أهله) . . وهذا الحديث له معنيان :

المعنى الأول : أن العقل البشرى يستنفد تجربته ، ويستنفد فكره ، ويستنفد طموحاته كلها فى اكتشاف أسرار الله فى كونه . . حتى يظن الانسان انه بالعلم الذى وصل إليه ، وبالامكانيات ، أو التكنولوجيا التى يقولون عنها قادر على أن يتصرف فى الحياة وفق ما يريد . . وأن يخضع أحداثها لإرادته .

ومادام الانسان قد ظن أنه قادر على الحياة فى الأرض . . وعلى أن يفعل ما يشاء بذاته . . فإنه ينسى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضع له هذه الامكانيات فى الأرض ، واستخلفه فيها . . وجعلها خاضعة لإرادته ، ينسى الانسان قدرة الله . . ولا يعقد إلا فى قدراته . . وإذا نسى الانسان قدرة الله فقد ترك منهجه . . وبدأ يتصرف فى الكون وفقا لارادته ، أو ما تشتهيه نفسه ، فتختل الموازين . . ويستعبد القوى الضعيف ، ويصبح المال الحرام حلالا . . ومادام الحق قد ضاع من الأرض ، والانسان اعتقد أنه قد سيطر عليها ، بحيث يستطيع أن يفعل ما يريد . . فإن الله سبحانه وتعالى ، وهو يرى البشرية قد وصلت إلى هذه الحالة ، يأتى

يوم القيامة ليعيد الميزان الحق يحكم بين البشر .

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة يونس ـ الآية ٢٤)

إذن إذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع .. فإنه من علامات القيامة أن يعطى الشىء لغير أهله .. أى أننا بدلا من أن نعطى فى الدنيا الأمر لله سبحانه وتعالى .. لأنه هو الآمر والخالق والناهى .. تأتى لغير أهل هذا الأمر .. والذين لا يستطيعون فننسبه إليهم دون ما حقيقة .. وهكذا ينسب الانسان بغروره التقدم العلمى الذى يحققه لنفسه ، وهو غير أهل لهذا .. فهو لا يستطيع حقيقة .. أن يخضع قانونا واحدا من قوانين هذا الكون لارادته .. ولكن هذه القوانين كلها تخضع لارادة الله وحده .. ومع ذلك فهو يظن .. ولنلتفت إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وظن أهلها ﴾ .. أى اعتقدوا باطلا على غير الحقيقة انهم قادرون عليها .. والظن نوع من

التخمين الذى لا يستند إلى أى حقيقة علمية ولا يعتد به . .

ولكن أهل الأرض قد أخذوا هذا الظن وحولوه إلى يقين . . وقالوا : لقد استطعنا بالعلم والتكنولوجيا أن نخضع الأرض ونجعلها خاضعة لمشيئتنا . . حينئذ يأتى أمر الله ليدمر كل الشىء . . فيعرف الناس يقينا أن الأرض لا تخضع لمشيئتهم . . لأنها لو كانت تخضع لهذه المشيئة ، لاستطاعوا حمايتها من التدمير بالقوانين التى ظنوا أنهم اكتشفوها .

نأتى بعد ذلك إلى الشق الثانى من نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومعناه أنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون بالابقاء على حكمهم وولايتهم ألا يختاروا الناس حسب كفاءتهم أو علمهم أو خبرتهم . . ولكنهم يختارونهم من الذين يطيعونهم فى الحق والباطل ، وتلك قضية يعبر عنها فى العصر الحديث بأهل الثقة وأهل الخبرة .

يأتى هؤلاء الحكام أو الولاة ، وهم يعرفون من يصلح لهذا العمل ، فيبعدونه عنه ، ويضعون انسانا لا يفقه شيئا فى هذا المجال ، لأنه يطيعهم حتى ولو كانوا على باطل .

وبهذا تنتفى الخبرة السليمة فى إدارة العمل . . ويصبح الذين يعلمون لا يفعلون شيئا . . والذين لا يعلمون هم الذين يديرون حركة الحياة فى الكون كله . . ومادامت المسألة أهل ثقة وأهل خبرة . . تكون كل الأمور قد خضعت للهوى . . لأن أهل الثقة هم

الذين ينفذون هوى النفس بالنسبة للوالى أو الحاكم بدون أى اعتبار آخر . . وهنا تكون حركة إشراف الناس على الحياة قد اختلت . . ومادامت حركة إشراف الناس على حركة الحياة مختلة . . تصبح حركة الحياة كلها مختلة . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك فى الحديث الشريف حين يقول : (من ولى أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين) . . وذلك لأن مثل هذا العمل سيفسد نظام الكون كله .

على أن هناك نبوءات أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات الساعة تبين لنا بوضوح أكثر . . كيف ستختل حركة الحياة عندما تقترب الساعة . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل السادس

انقلاب في الموازين

انقلاب فى الموازين

إذا أردنا أن نكمل الحديث عن علامات يوم القيامة التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإننا نحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، ذلك أن العلامات التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم علامات كثيرة . . منها علامات تحققت . . وعلامات كبرى لم تتحقق بعد كظهور المسيخ الدجال ، والمهدى المنتظر ، وغير ذلك مما لم يتحقق بعد . . ولكننا لن نتعرض إلى مالم يتحقق . . مكتفين ببعض ما تحقق فعلا . . وإذا كان بعض الناس يشكون ، أو لا يصدقون فى أن العلامات الكبرى للقيامة ستتحقق ، فاننا نقول لهم : إن صدق ما تحقق الآن دليل على صدق ما هو قادم . . ونحن نصدقه لأنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين .

على أننا قبل أن نتحدث عن بعض علامات الساعة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا نقول إن هذه العلامات كلها هى تفسير للآيات الكريمة :

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الروم ـ الآية ٤١)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

(سورة الفرقان ـ الآية ٣٠)

أى أن ظهور الفساد فى الدنيا هو بما كسبت أيدى الناس . . أى أن منهج الله لا يتضمن الافساد فى الأرض . . بل إن منهج الحياة يضع أسس الاصلاح فى الأرض ، والصلاح فى الكون . . ولكن الناس بعدوا عن منهج الله ، فظهر الفساد . . ومع ظهور الفساد سيعانى الناس ، لتصبح حياتهم أكثر تعقيدا ، وأكثر عناء ، وأكثر معاناة . . وذلك جزاء من الله ليذيقهم بعض ما عملوا .

ونلاحظ هنا أن رحمة الله قد سبقت عدله . . فلم يقل سبحانه وتعالى يذيقهم ما عملوا . . ولكنه قال :

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾

(سورة الروم ـ الآية ٤١)

أى أن الله سيذيق الناس فى الدنيا نتائج جزء يسير جدا من أعمالهم ، ويؤجل الجزاء الأوفى للآخرة ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾

(سورة فاطر ـ الآية ٤٥)

أى ما ترك على ظهر الأرض أى حى يدب بقدميه عليها . وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الفرقان ـ الآية ٣٠)

معناه انهم هجروا منهج الله . . لأن القرآن هو منهج السماء إلى الأرض وهجروا هذا القرآن . . أى تركوا العمل بأحكامه . . وكما بينا هو أن يوم القيامة يأتى عندما يهجر الناس المنهج ، ويظنون انهم بقدراتهم يحكمون الأرض ، ويسيطرون عليها .

على أننا قبل أن نمضى لابد أن نقول إن علامات الساعة متى تحققت لا تختفى . . وأنها تزيد ولا تنقص . . ذلك فإن ما تحقق منها حتى الآن سيزداد مع مرور الزمن .

أماتوا الصلاة ..
وأضاعوا الأمانة

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة ، وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ، واستعلوا بالبناء ، وباعوا الدين بالدنيا . . . . » .

هذه بعض علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ما معنى أماتوا الصلاة . . الميت هو الغائب عن الدنيا . . ذلك أن أساس الدين كله هو منهج للحياة الدنيا . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧٠ ﴾

(سورة يس - الآيتان ٦٩ و ٧٠)

إذن فالقرآن الكريم نزل للأحياء .. وهو منهج السماء للحياة الدنيا .. ونحن حين نموت نرى كل شىء رؤية يقين .. ولا تعود هناك فائدة من إنذار بالغيب ، أو ما سيقع لنا .. لأنه أصبح واقعا فعلا ورأيناه .

وإذا كان القرآن كمنهج السماء إلى الأرض .. فإننا يجب أن نعمل به ونطبق تعاليمه فى حياتنا الدنيا .. وأهم تعاليم المنهج وأساس العبادة هى الصلاة .. لأنها الصلة بين العبد وربه .. وكل أحكام الدين ترفع ما عدا الصلاة .. فالحج لمن استطاع إليه سبيلا .. فمن لم يستطع ، لأنه كان فقيرا ، لا يملك ما يحج به لا يكلف بالحج .. والزكاة لمن عنده فائض من المال .. فإذا كان رزق الانسان يكاد يكفيه بالكاد ، فلا يكلف بالزكاة .. وإذا كان فقيرا لا يجد قوته ، فهو مستحق للزكاة ، وليس مكلفا بها .. والصوم لمن كان فى تمام صحته ، ولم يكن مسافرا .. فمن كان مريضا أو على سفر ، فيستطيع أن يفطر فى رمضان .. ويقضى الأيام التى أفطرها فى غير رمضان .. إلا الصلاة فهى لا تسقط بالمرض ، ولا تسقط بالسفر .. ولا تسقط بالفقر .. والانسان لابد أن يصلى واقفا .. فإن كان مريضا يصلى قاعدا .. وأن كان لا يستطيع أن يغادر الفراش بسبب

المرض ، يستطيع أن يصلى راقدا . . والصلاة تظل قائمة عند المؤمن من سن التكليف حتى الوفاة . .

والصلاة إذن هى أساس حياة المؤمن لا يتركها أبدا . فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أماتوا الصلاة) . . أى غابت عن حياتهم الدنيا ، فلم تصبح موجودة . . والميت لا يسمع ولا يعى حركة الدنيا . . وكأنه من علامات الآخرة ، أن يؤذن للصلاة ، فلا يقول أحد إلى المساجد ، ليؤدى الصلاة . .

أى أنه عندما يؤذن المؤذن للصلاة ، كأنه ينادى على ميت ، فلا يجيبه أحد .

وقوله صلى الله عليه وسلم (وأضاعوا الصلاة) يؤخذ بمعناه الواسع ، ومعناه المحدود . . فالأمانة هى منهج الله التى حملها للانسان فى الأرض وحمله الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل . . وكأن إضاعة الأمانة معناها أضاعوا منهج الله فى الأرض . . هذا هو المعنى الواسع .

أما المعنى المحدود فهو أن الأمانة بين الناس ضاعت . . أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عندما تصبح الأمانة مغنما » . . أى أنه يأتى الانسان إلى أخيه الانسان يحمله أمانة بأن يحافظ على ماله ، أو على عرضه ، أو على أولاده ، فيعتبر هذا الشخص هذه الأمانة غنيمة له ولا يردها ، يأخذها وهو يعد بردها ، ولكنه بمجرد أخذها يعتبرها غنيمة لا ترد . . فإذا كانت الأمانة

مالا ينكره ولا يرده . . وإذا كانت الأمانة على العرض أو الزوجة يحاول هو أن يغرى هذه الزوجة بالفاحشة ، ويدفعها إلى خيانة زوجها ويعتبرها غنيمة له ، ليستحل ما حرمه الله . . وإذا كانت هذه الأمانة فى الأولاد . . أخذ هؤلاء الأولاد ، وكلفهم بخدمته فى منزله . . وربما منع عنهم الطعام والشراب . . وربما ضربهم إذا لم يخدموا ويفعلوا ما يريده . . وهكذا نرى أن إضاعة الأمانة بمعناها الواسع ، ومعناها المحدود ، تزداد فى المجتمعات .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأكلوا الربا) ونحن نرى أن العالم كله يأكل الربا . . وأن كل إنسان يستحل ويحب أن ينمو ماله بلا حركة فى الحياة ولا عمل ، وهذا ما حرمه الاسلام . . والربا هو أساس الكوارث الاقتصادية . . واضطراب اقتصاد العالم الآن . . حتى إن دولا أعلنت إفلاسها بسبب عجزها عن سداد فوائد الديون ، أو بسبب تعاملها بالربا ، وهو ما حرمه الله . . ولن ينصلح اقتصاد العالم إلا إذا عاد إلى منهج الله . . وانتهى نظام الربا كنظام عالمى ، ليحل محله نظام المشاركة الاسلامية ، والنظم الاسلامية التى وضعها الاسلام . .

واستحلوا الكذب

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستحلوا الكذب » فمعنى ذلك أن الكذب أصبح حلالا يتعامل به كل الناس ، بدلا من الصدق . . ومن كثرة الكذب يصبح هو السمة الغالبة فى المجتمع . . ويصبح الانسان يسمع الكلام فلا يصدقه ، ولو كان صدقا . . لأن الثقة قد انتهت . .

والكذب هو انفصال الكلام عن الفعل . . وما دام الكلام ينفصل عن الفعل فى حياة الانسان ، ويراه فى كل شىء حوله ، فإنك ذلك بهدم ، الثقة فى المجتمع . . ويعطى الناس الشعور بأن كل ما يقال هو زيف ، وليس حقيقة .

وفى هذه الحالة ينفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها . . فيصبح واقع الحياة شيئا . . وما يتكلم به الناس شيئا آخر .

والانسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يخفى خطيئة أو عملا شائنا . . ذلك أن العمل الذى أحله الله يتباهى به الناس جميعا . . فإذا كنت مثلا مع زوجتك فى البيت وسألك أحد أين كنت ؟ . . قلت بلا تردد ، وبدون أن تحاول أن تكذب : كنت مع زوجتى فى البيت . . أما إذا كنت فى البيت مع زوجة رجل آخر . . وسألك أحد أصدقائك : أين كنت ؟ . . فإنك فى هذه الحالة تلجأ إلى الكذب ، لتخفى مخالفة لمنهج الله لا تنسجم مع حياة النفس البشرية وملكاتها .

وأنت حين تملك مالا حلالا ، فانك تجلس فى أى مكان وتحصيه إن أردت إحصاءه . . ولكن إذا كان هذا المال حراما . . فانك تبحث عن مكان مهجور ، أوطريق مظلم ، أو بيت لا يراك فيه أحد ، لتحصى هذا المال . . فإذا سألك أحد : ماذا كنت تفعل ؟ . . كذبت ولم تستطع أن تقول له : كنت أعد مالا مسروقا .

إذن فإنه عندمايستحل الكذب ، فمعنى ذلك أن المعصية قد تفشت فى المجتمع . . وأن أفعال الناس لا تتفق مع منهج الله . . وما دامت الأعمال لا تتفق مع منهج الله . . فإن الناس يستحلون الكذب ليخفوا معاصيهم . . وهذا دليل على انحراف خطير فى المجتمع .

واستخفوا بالدماء

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستخفوا بالدماء » . . أى انتشر القتل بدون قصاص . وهذا ما نراه الآن فى العالم كله فى الحروب الأهلية وحوادث النسف والتدمير التى لا تكاد تخلو نشرة أخبار واحدة منها . . هؤلاء الناس الذين دبروا حواث النسف هذه ، واستخدموا السيارات الملغومة ، وأطلقوا الرصاص عشوائيا ، واستخفوا بدماء الناس . . لأن هؤلاء الضحايا هم ضحايا أبرياء . . لم يفعلوا شيئا حتى استحقوا القتل . . وهم ليسوا طرفا فى النزاعات

التى تحدث .. ولذلك لا تستحل دماؤهم .. ولكن أولئك الذين يقومون بهذه العمليات التى تتم فى معظم دول العالم ، ويدبرون حوادث النسف والاغتيال ، إنما يستخفون بدماء البشر .

وباعوا الدين .. بالدنيا

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستعلوا بالبناء وباعوا الدين بالدنيا » .. معناه أن الناس قد استحلوا جمع المال عن أى طريق وبأى طريق .. وليس لديهم أى وازع من الدين .. بل انهم فى عملهم وكل تحركاتهم .. ليس فى بالهم الله .. ولكن فى بالهم أن يعلو بنيانهم ، وتزداد ثرواتهم .. ومادام هناك بيع فمعناه أن هناك سلعة وثمنا .. وكون الذى بيع هو الدين .. فمعناه أنهم أخذوا مغانم الدنيا ، بدلا من منهج الله .. وأصبح الصراع بين الناس صراعا بين دنيا ودنيا ، وليس صراعا بين دنيا وآخرة .. ولم يعد أحد يحرص على الدين حرصه على المال أو متاع الدنيا . مع أن كل ما فى الدنيا زائل مهما طال العمر .

الزكاة .. مغرما

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كانت الأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، والتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته ،

وعق أمه وود صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وأُكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات وكثرت المعازف ، وشرب الخمر ، ولعن آخر هذه الأمة أولها) .

ومعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات القيامة أن تكون الأمانة غنيمة لمن أؤتمن عليها لا يردها وقد سبق أن بينا ذلك . . أما أن تكون الزكاة مغرما . فهى أن يعتبر الناس دفع الزكاة غرامة يحاولون أن يتهربوا منها . . بينما الزكاة هى ركن من أركان الاسلام . . ووسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى . . ولكن الناس لأنهم ابتعدوا عن منهج الله يعتبرون الزكاة غرامة . . لا يؤدونها إلا وهم كارهون . . هذا إذا أدوها . . ويحاولون التهرب من أدائها بمبررات كاذبة .

والتعلم لغير الدين

والتعلم لغير دين نراه الآن فى مجتمعاتنا . . فالأب حريص على أن يعلم ابنه اللغات . . وحريص على أن يعلمه العلوم الدنيوية . . والناس يتقاتلون ليلحقوا أولادهم بما يسمى الآن بمدارس اللغات . . والأب يضرب ابنه ويراقبه مراقبة دقيقة إذا لم يذاكر . . مع انه لا يأمره بالصلاة مثلا ، ولا يحاسبه عليها ، ولا يحثه عليها . . ولا يحاول أن يجعله يدرس علوم الدين مع علوم الدنيا . . أو يعرف

شيئا عن دينه . . بل كل همه هو العلوم الدنيوية . . مع أن الأب فى هذا قصير النظر . . ذلك أنه يعمل لشىء قد لا يقع ، ويترك شيئا لا محالة واقع . . فقد يموت الابن قبل أن يتخرج فى الجامعة ، فلا يحقق هدفا . . وقد يصاب بمرض يقعده عن العمل فيضيع كل ما تعلمه . . ولكن هذا الابن لا محالة سيقابل الله . . أى أن تعلمه للدين ، واتباع المنهج ، أمر له جزاء مضمون . . فلا أحد سيفلت من الآخرة . . أما علوم الدنيا فلا ضمان فى الدنيا . . ومع ذلك فاننا نجد الناس يتكالبون ليعلموا أولادهم لغير دين . . ولا يهتم إلا القليل منهم بتعليم أولاده الدين ، ومحافظتهم على الصلاة ، وحثهم على صالح الأعمال .

وأطاع الرجل امرأته
وعق أمه

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو أطاع الرجل امرأته . وعق أمه ، وود صديقه ، وأقصى أباه) . . فمعناه أن الرجل حينما يتزوج يطيع امرأته فى كل شىء ، وهو يغرقها بالمال وما تحتاج إليه . . فإذا كانت أمه فقيرة ، عقها ولم يعطها شيئا . . وإذا كانت مريضة ، وطلبت منه امرأته أن تذهب لزيارة احدى صديقاتها ، ترك أمه المريضة ولم يزرها ، وصحب زوجته فى هذه الزيارة . . وإذا كانت

الأم تعيش وحيدة فى شقة أغرته امرأته باخراج أمه من الشقة ، لتحصل هى على الشقة . . وبيوت المسنين فيها أمثلة كثيرة من الأمهات اللاتى طردهم أولاهن من منازلهن . . وأحيانا يؤذى الرجل أمه إرضاء لزوجته . . مع أن الرجل أمامه آلاف النساء ليختار منهن زوجة . . ولكن ليس له إلا أم واحدة . . وعقوق الأم جريمة كبرى فى الاسلام . . فالله قد حث على رعاية الأم والأب فى شيخوختهما . . وقال تعالى :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٢٤)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » . . وعندما سأله صحابى . . من أحق الناس بصحبتى يارسول الله ؟ . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمك . . وكررها ثلاث مرات .

وما يقال عن الأم ، يقال عن الأب . . فالابن قد يترك أباه المريض الذى لا يجد أحدا يعطيه كوب ماء ، ويذهب ليقضى السهرة مع أصدقائه . . وقد يأخذ مال أبيه الذى هو فى أمس الحاجة اليه لينفقه على أصدقائه . . وقد يزور صديقه المريض . . ولا يزور أباه المريض .

وظهرت الأصوات فى المساجد

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وظهرت الأصوات فى المساجد) .. أن الناس يذهبون إلى المسجد ليس للعبادة ، ولكن للتحدث فى شئون الدنيا .. والمسجد هو بيت الله .. وإذا ذهبت إلى المسجد ، فأنت تذهب لذكر الله والعبادة وإياك وأنت فى المسجد أن تتحدث فى شأن من شئون الدنيا .. ولكننا نرى الناس يذهبون إلى المساجد لاتمام صفقة ، أو للاتفاق على تجارة ، أو أى شىء من هذا القبيل .. ويقول أحدهم للآخر : سأقابلك فى المسجد لنتفق على هذا وذاك وبذلك تخرج المساجد عن أنها دور للعبادة ، وتصبح مكانا دنيويا للتحدث فى شئون الدنيا .. ومن يتفق على تجارة أو أى شأن من شئون الدنيا فى المسجد ... فلا يبارك الله له فيما اتفق عليه .. وذلك أن المسجد لا يقصد إلا للعبادة .. ولا يتحدث فيه إلا بذكر الله والتسبيح له .

تكريم الرجل مخافة شره

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأكرم الرجل مخافة شره » .. أى أن الناس من خوف الدنيا تكرم الرجل الشرير اتقاء

شره ، ولا تكرم الرجل الكريم . . فالانسان عادة يكرم لدينه ، ويكرم لخلقه ، ويكرم لعلمه . . ولكنه لا يكرم أبدا لشره . . بل إن الانسان الشرير لابد أن يقف المجتمع كله أمامه حتى يقوموه . . ولكن لأن الخوف يملأ قلوب الناس .فإنهم لا يجرؤون على مواجهة الانسان الشرير . . بل يكرمونه ليبتعد عنهم . . وفى هذا تشجيع للشر والرذيلة فى المجتمع . . بحيث يصبح الشر هو القوى . . وهو السائد . . وهو الذى يحكم المجتمع . .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكثرت القينات والمعازف وشرب الخمر » . . والقينات معناها أماكن اللهو التى تعزف فيها الموسيقى ، وتلهى الناس عن دينهم وعن ذكر الله . . ولعلنا نشهد الآن هذه الظاهرة بعد أن كثرت أماكن اللهو والغناء والخمور . . وأصبحت فى كل حى ، وهى تزداد ولا تنقص . . بمعنى أنه يفتح الجديد منها ، والقديم قائم .

ظهور هذه الأماكن معناه أن الناس قد نقضوا نظام الله فى الكون . . ذلك لأن الله تعالى قد جعل الليل لباسا والنهار معاشا . . أى أن الانسان المؤمن حين يأتى الليل يأوى إلى بيته بعد صلاة العشاء لينام . . ولكن وجود هذه الأماكن يجعل الناس يسهرون الليل ، بدلا من أن يناموه . . ويضيع منهم اعتدال حركة حياتهم . . ويقوم الانسان من نومه بعد شروق الشمس بساعات . . ويكون قد أضاع صلاة الفجر التى هى خير من الدنيا وما فيها . . فرسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » . . وينزل الانسان لعمله متعبا ، لأنه لم يمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى أن ينام الليل . . بل ظل ساهرا حتى ساعة متأخرة . . وتكون النتيجة أنه أضاع صلاة الفجر ، وأضاع إنتاج اليوم .

وبعض الناس يشكون من أنهم لا يستطيعون الاستيقاظ عند الفجر للصلاة . . نقول لهؤلاء جميعا : لو أنكم اتبعتم منهج الله وأويتم إلى فراشكم بعد صلاة العشاء ، فانكم تستيقظون فى الفجر ، بل قبل الفجر ربما بساعة أو أكثر . . فالليل للسكون ، وليس للحركة . . وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾

(سورة النبا ـ الآيتان ١٠ ـ ١١)

ولكن المعازف والسهر فى الليل . . يتنافى مع كون الليل سكنا لينام الانسان ويجدد نشاطه .

إذن فظهور القينات والمعازف وشرب الخمر . . هو إفساد لمنهج الله ، وإضاعة لصلاة التهجد ، وصلاة الفجر ، وقرآن الفجر . . وكل هذا يشير إلى أن الناس يبتعدون عن تطبيق المنهج .

يلعن آخر الأمة أولها

ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويلعن آخر هذه الأمة أولها) . . أى أن الذين يعيشون خلال هذه الفترة يهاجمون الصحابة ويصفون هذا الدين بالتخلف . . ويتحدثون عن السلفية أحاديث مقصود بها تشويه السلف الصالح . . أولئك الذين حملوا هذا الدين ونقلوه إلى الدنيا كلها . . والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز فى وصف المؤمن . .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

(سورة الحشر ـ الآية ١٠)

وهكذا طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نطلب المغفرة لأولئك الذين سبقونا بالايمان . . على أساس الوحدة الايمانية للمؤمنين أولا . . وعلى أساس أنهم تركوا لنا من العلم ما ننتفع به فى ديننا . . فكل ما كتب حول القرآن الكريم قام به أولئك الذين سبقونا بالايمان . . وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وتفسير هذه الأحاديث وصلتنا عن الذين سبقونا بالايمان . . وكتبهم ودراستهم لا تزال موجودة بيننا حتى اليوم . . تعطينا نور الايمان . . وتبين لنا كيف أن السلف الصالح قد أفنوا أعمارهم فى دراسة دين الله ،

والتفقه فيه ليقدموا لنا ذخيرة لا تنفد . . وكان المنتظر منا ، بعد أن قدموا لنا هذه الخدمة الجليلة فى ديننا ، أن نطلب لهم الرحمة والمغفرة . وأن يتقبل الله منهم صالح أعمالهم . . بهذا وصف الله المؤمنين فى القرآن الكريم . .

ولكننا الآن نجد تجنبا واضحا وعلنيا على السلف الصالح . . وهجوما وتشويها لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وإلصاق التهم الباطلة بهم . . وصب اللعنات عليهم . . واتهامهم بأنهم سبب تخلف هذه الأمة . . وهذا يتم جهارا نهارا فى الصحف والمجلات والكتب . . ويتخذ بعض الناس من الهجوم على السلف الصالح وتشويههم صناعة يتكسبون منها فى الحياة الدنيا .

الورع تصنع

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات القيامة أن يكون الزهد رواية ، والورع تصنعا ، وأن يكون الولد غيظ أبيه وأمه ، وأن يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويؤتمن الخائن ويخون الأمين ، ويسود كل قبيلة منافقوها ، وكل سوق فجارها ، وأن يعمر خراب الدنيا ، ويخرب عمرانها .

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يكون الزهد رواية والورع تصنعا » هو أن يختفى أولئك الزهاد والوراع الحقيقيون . .

وأن يظهر الانسان غير ما يبطن ، فيصبح الزهد ليس حقيقة ، ولكنه مجرد روايات كاذبة يتناقلها الناس عن بعض الناس .. فى محاولة لخداع عامة المسلمين ، وايهامهم بأن هذا الرجل زاهد فى الدنيا .. ليحصل بهذه الطريقة على مزيد من المال .. ويقال : أن هذا الانسان زاهد .. فى حين أنه يملك مالا كثيرا .. يكنزه ولا يتصدق به .. أو تصبح تجارة الناس هى الدنيا .. ومن تكالبهم عليها لا يكون الزهد حقيقة .. ولكنه يكون ماضيا قد اندثر يحكيه الرواة عن أبائهم ، أو عن أجدادهم .. ويقولون فى عام كذا كان هناك رجل زاهد يعيش فى مكان كذا .. ويفعل كذا وكذا .. وتصبح حكايات الزهد كلها هى روايات عن الماضى ، ليس لها واقع ، وليس لها حاضر .. فيبحث الناس عن الزهاد فلا يجدونهم ..

(والورع تصنعا) .. أى أن الناس تتظاهر بالورع .. ولكنه فى الحقيقة ليس موجودا فى قلوبهم .. وينتشر الرياء فى الدين .. فيذهب الانسان إلى المسجد لا يقصد الصلاة ، ولكن ليقول الناس عنه : انه مصل .. ويذهب الانسان إلى الحج لا يقصد الحج ، ولكن لقال عنه انه حاج .. ويتحدث الناس عن الدين ويتخذونه صناعة ، يعلمونه للناس ولا يعملون به .. ويقيم الناس المساجد لا يقصدون منها وجه الله .. وانما يقصدون منها أن تخلد أسماؤهم فى الدنيا ، أو أن يحصلوا على إعفاءات من رسوم عقارات ، أو أرض مجانا ، أو أى ميزات دنيوية كالذى يخصص مكانا صغيرا فى عمارة كزاوية للصلاة ، وهو فى الحقيقة يريد إعفاءه من الضرائب

العقارية . . أو كالذى يتحايل لبناء عمارة بأن يحصل على رخصة بناء مسجد حتى يتخطى أوامر منع البناء فى منطقة معينة ، ثم بعد ذلك يقيم العمارة التى يريدها . . أو ذلك الذى يأتى إلى أرض ليسورها على أساس أنها مسجد ليأخذها مجانا ، أو بثمن زهيد ، ثم بعد ذلك يبنى عليها ما يريده .

كل هذه الأشياء لا تنفع ، ولا يجزى الله سبحانه وتعالى عنها أحدا من الذين قاموا بها . . فلا يعتقد أحد أنه يستطيع أن يخدع الله . . قد يستطيع الانسان أن يخدع الناس . . ولكن أحدا لن يستطيع أن يخدع الله . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الجن ـ الآية ١٨)

فإذا لم يكن بناء المسجد يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى خالصا . . يشيد أولا كمسجد ، وليس كوسيلة للحصول على إعفاء ضريبى أو رخصة بناء ، أو أى نوع آخر من الفوائد الدنيوية . . والا يكون تخليدا لذكرى إنسان . . إذا لم يكن المسجد كذلك فلا يتقبل بناؤه . . أما ما يمكن أن يقال عن المساجد التى سميت بأسماء أولياء الله الصالحين . . فإن هؤلاء الصالحين اسمهم خالد فى الدنيا بعلمهم الصالح . . وهم لم يبنوا هذه المساجد ، وانما بناها من بعدهم . . كما أنها مبنية فى أحياء من المدن مسماة بنفس الأسماء . . والمهم هنا ألا تكون نية صاحب المسجد ، وهو يبنيه ، انه يفعل شيئا

ليخلد اسمه فى الدنيا . .

وهكذا نرى أن من علامات الساعة أن يصبح الزهد رواية ، ويختفى الزهد من الدنيا ، ويلعن السلف الصالح . وأن يصبح الورع تصنعا . . أى يختفى الورع من القلوب ، ويصبح مجرد صناعة يلجأ إليها بعض الناس من أجل أغراض دنيوية . .

يكون الولد غيظ أبيه

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن يكون الولد غيظ أبيه وأمه) . . معناه أن موازين الحياة ستختل ، بحيث يصبح الولد أو الابنة هما مثار التعب والغيظ للأم والأب . . والولد أساسا يكون قرة عين أبيه وأمه . . وامرأة فرعون قالت عن موسى عليه السلام :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾

(سورة القصص ـ الآية ٩)

أى أن الولد أساسا موجود فى الدنيا كقرة عين لأبيه وأمه ، يعينهما على الحياة ويطيعهما ويرعاهما فى الكبر . . ولكن بدلا من أن يحدث ذلك يكون الولد غيضا لأبيه وأمه . . يعمل ما يغيظهما . . فيتلف المال ، وربما كان الأب والأم لا يملكان من المال ما يكفى . . ويوجد لهما المشاكل بسوء عمله مع الناس ، أو اعتدائه عليهم . . ولا يعينهما على قضاء حوائج الحياة ، فإذا طلبا منه أن يفعل لهما شيئا رفض . .

وإذا طلباه بأن يؤدى عملا قال : لا . . وهكذا لا تأتى منه راحة لأبيه وأمه . . بل يأتى منه ما يغيظهما وينغص عليهما حياتهما . . ويصبح الأب يتمنى لو انه لم يرزق بهذا الغلام الذى حول حياته إلى شقاء لا يعينه على الحياة . . ولكنه يزيدها ظلمات وتعقيدا . .

كما أن بعض الأبناء لا يحمل احتراما لأبيه ، فإذا تكلم الأب عارضه الابن ، وربما هاجم رأيه إلى آخر ما نراه الآن . . وكل هذه العلامات إنما هى دليل على نقض منهج الله ، وعدم العمل به .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويؤتمن الخائن ، ويخون الأمين » . . معناه اختلاط القيم فى المجتمع ، بحيث يختلط الأمر على الناس . . فمن كثرة الكذب الذى يسمعونه لا يعرفون من يصدقون ومن يكذبون . . كل كلمة تحتمل الكذب . . وكل ما يقال بعيد عن الحقيقة . . ولذلك فإن الناس يصدقون الكاذب ، لأنهم لا يسمعون إلا كذبا . . فإذا جاء انسان مخلص يريد أن يقول لهم الحقيقة كذبوه . . كذبه أولا أصحاب المنافع الدنيوية . . الذين يريدون للكذب أن يسود حتى يصلوا إلى أهدافهم بالنفاق والخداع . . وكذبه الناس من كثرة ما يروى من الكذب على أنه صدق .

ويؤتمن الخائن ويخون الأمين تحمل نفس معنى اختلاط القيم . . فلا يعرف الناس من هو الأمين من كثرة انتشار الخيانة فعندما يأتى رجل أمين لا يصدقه الناس ويخونوه . . لأن الخيانة هى السمة فى

المجتمع كله . أما أن يؤتمن الخائن فهى أن يكون أناس خونة .. يدعون الأمانة ، ليحصلوا على أموال الناس بالباطل .. وبعض الناس يصدقونهم .

ويسـود القبيـلة منافقـوها

وقوله صلى الله عليه وسلم (يسود كل قبيلة منافقوها) .. علامة على أن النفاق سيكون هو الوسيلة للارتقاء فى المجتمع والتقدم إلى أعلى المناصب .. وهذا أيضا دليل على اختلاط القيم فى المجتمع .. فلا يعتمد تقدم الانسان فى الحياة على علمه ، أو عمله ، أو ثقافته ، أو مهارته .. بل يعتمد على إتقانه للنفاق .. فكلما اتقن الانسان النفاق كانت فرصته أكبر للوصول إلى أعلى المناصب .

وهكذا تصبح القمة من المنافقين ، وينزوى المخلصون بعيدا .. وهذا معناه أن الأمور لا تصرف بالحق ، ولا بالصدق .. ولا بالأمانة .. ولكن تصرف بهوى النفس . وتصبح الأغراض الشخصية هى التى تحكم .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يسود كل سوق فجارها » .. والفاجر هو الذى يجاهر بالمعصية .. أى أن يكون أولئك العاصون هم الذين يعجب بهم الناس ، ويجاهرون

بالمعصية . . وأن يكون التاجر الذى يغش ويبخس فى الميزان ، ويحقق أرباحا فاحشة هو سيد السوق . . أى أكثر التجار غنى . . وأكثرهم احتكارا لأقوات الناس .

وأن يكون المؤمن فى القبيلة أذل من النقد . . والنقد هو صغار الغنم . . أى لا يؤبه به ، ولا يكون له أى وزن فى قبيلته ، لأنه محافظ على إيمانه .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يخرب عمران الدنيا ، ويعمر خرابها » . . أى أن تحدث الفتن فى المدن التى يسكنها الناس ويقاتل الناس بعضهم بعضا . . حتى تخرب الأماكن العامرة ، ويهرب منها الناس ، وتصبح خرابا . . وهذا حادث الآن فى كثير من دول العالم . . حيث تخرب الحروب الصغيرة ، والحروب الأهلية المدن العامرة ، وتحولها من أماكن مليئة بالخير إلى أماكن خربة .

ولعلنا إذا أردنا أن نأخذ مثلا قريبا . . فأمامنا لبنان . . أما أن يعمر خراب الدنيا . . فمعناها أن تضيق الأرض بالناس . . حتى إنهم لا يجدون حلا لاستمرار حياتهم إلا أن يعبروا الأماكن الخربة . . فيحاولوا زراعة الصحراء والأماكن النائية عن العمران لتستطيع الحياة أن تستمر .

شهادة الزور

ومن علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق . . ونشر الظلم أى (كثرة النكتة) . وقلة العلماء . وانتشار البيع بالربا والسحت بالهدية ، وأن تزخرف المحاريب : وتخرب القلوب) . . ومعنى ذلك أن الحق يختفى من الأرض فتظهر شهادة الزور ، وتكتم شهادة الحق ، ويجد الرجل أن هناك قول زور يقال أمامه ليؤمن عليه ، ولا يستطيع لسانه أن ينطق بشهادة حق . . ونشر الظلم أى كثرة النكتة ، معناه استهتار الناس بالقيم ، وأخذهم الجد بالهزل . . فيهزلون طوال يومهم ، ولا يقوم واحد منهم بأى عمل جاد . . وقلة العلماء . . أى أن العلماء يصبح عددهم أقل من القليل . . فلا يوجد العلماء الذين ينشرون كلمة الحق ، وذلك معناه أن يذهب الصالحون الأول فالأول . . ولا يبقى إلا أولئك الذين لا يعرفون من العلم إلا القليل النادر .

واستحلال البيع بالربا ، معناه أن ينتشر الربا . . ويقول الناس عنه انه بيع . . أى يحصل الناس على الربا ، ويستحلونه باسم البيع ، والسحت بالهدية . . أى يستحل الناس الرشوة على أساس أنها هدية . . أى أن الناس يتحايلون على اظهار الربا انه بيع . . والحصول على الرشوة والمال الحرام ، ويسمونها هدية . .

تزخرف المحاريب وتخريب القلوب

وقوله صلى الله عليه وسلم (أن تزخرف المحاريب ، وتخرب القلوب) .. معناه أن حقيقة الايمان تختفى ، ولا يبقى إلا مظهره .. فالناس تكون قلوبها خربة ليس فيها ذرة من إيمان .. ومع ذلك فهى تتسابق لزخرفة المنابر والمساجد تظاهرا وليس عن إيمان .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأن يقرأ القرآن فلا يتجاوز الحلقوم) .. معناه أن القرآن سيقرأ باللسان فقط ، ولا يعمل به .. أى أن الانسان يقرأ القرآن بلسانه ، فلا يدخل إلى قلبه .. ويقوم من قراءة القرآن ليفعل ما حرمه الله .

هذه بعض أشراط الساعة ، أو علامات القيامة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهناك علامات أخرى كثيرة قد تحققت .. سنتعرض لها فى الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله .

ومادمنا قد تحدثنا عن مقدمات الساعة .. فلابد أن نكمل الحديث عن بداية أحداث الساعة .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

- الفصل السابع -

وجاء يوم القيامة

قبل أن نتحدث عن يوم القيامة ، وما سيحدث فيه .. لابد أن نتناول أولا معنى الآية الكريمة :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

(سورة القمر - الآية ١)

ذلك أن بعض الناس يجادل فى هذه الآية ، ويقول إنها حدثت وانتهت والبعض الآخر يقول إنها ستحدث فى آخر الزمان .

ومسألة انشقاق القمر هى معجزة حسية ، أو معجزة مشاهدة . والمعجزات الحسية تأتى مرة واحدة ولا تتكرر .. والمقصود بها هم الذين شهدوها .. أما نحن الذين لم نشهدها فإننا نصدقها ، لأنها جاءت فى القرآن الكريم .. ومن هنا فإن موسى عندما ضرب بعصاه فانشق البحر .. نحن لسنا المقصودين بهذه المعجزة .. ولكن المقصود بها هم أولئك الذين شهدوها .. أى تثبيت المؤمنين الذين كانوا مع موسى عليه السلام ، وجنود فرعون يتبعونه .

فالذين يقولون أن انشقاق القمر قد حدث .. هم الذين شهدوا هذه المعجزة .. ومعنى اقتربت الساعة أن رسول آخر الزمان قد بعث .. هذا هو معنى الاقتراب .. فإن كل رسول ، قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء وبعده رسل .. أما الرسول الخاتم ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام .. فهو الرسول الذى ستقوم على رسالته الساعة .. ولن تأتى بعده رسالة أخرى من السماء .. هذا هو معنى « اقتربت الساعة » .

أما معنى « وانشق القمر » .. وهل سينشق أم انشق فعلا .. إذا أخذناها بمعنى أنه قد انشق فعلا ، فهذه ظاهرة كونية ، وهى ليست مطلوبة ممن لم يرها ، بل هى مطلوبة ممن شهدها ، لأنها تجيء لمن يشهدها .. وهى تكون آية على صدق هذا الرسول ، ولا تأتى للبشر كافة .. وانما لمن شهدوها .

فالذى جاء للناس كلها .. للبشر جميعهم ، لم يكن آيات كونية .. ولكنه كان معجزة خالدة مستمرة لا تنتهى أبدا .. فمثلا عندما نقول ان عيسى أبرأ الأكمه والأبرص .. فهذا لم يحدث إلا مرة واحدة ، ثم انتهى .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بمثل هذه الآيات .. ولكننا نحن لسنا مطالبين بها .. انما المطالب بها من شهدها .. فنبع الماء من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتظليل غمامة له ، وتسبيح الحصى فى يديه .. كل هذه آيات كونية لتثبيت المؤمنين الأولين الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن شهدها فهو مطالب بها .

وانشقاق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه بعض الناس .. وبعض الناس لم يروه .. نقول : ان هذا شيء طبيعى .. لأننا ، ونحن الآن فى عصر تقدم ، يحدث كسوف للشمس ، أوخسوف للقمر .. كم من الناس يشاهد هذه العملية .. عدد قليل جدا .. مع أن الموعد يكون معلنا مسبقا ..

والناس قد قرأوا الخبر وسمعوه من أكثر من مصدر . . فإذا حصل خسوف للقمر ، وهذا يحدث ليلا ، فمعظم الناس يكونون نياما ، ولا يراه إلا قلة من العلماء الذين يعملون فى الفلك ، وبعض من يبقى مستيقظا خصيصا ليتابع هذا الحدث .

إذن فلا معنى لأى ظاهرة كونية إلا لمن يراها . . ونحن نقول دائما أنه ليس مع العين علم .

بقى الذين لم يروا . . من أراد أن يصدق فقد آمن بأن هذا حدث . لأنه فى هذه الحالة يكون ما تم غير مشهود بالنسبة له . . أى غيبا بالنسبة له . . والايمان لا يكون إلا بالغيب . . ولا يكون شىء حسى مادى مشاهد .

ففى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق القمر ، ورآه من رآه . . فمن أراد أن يصدق رواية الذين رأوه فقد آمن . . ولكن المسألة عندما تذكر فى القرآن الكريم ، أو يجىء بها القرآن مؤكدا رواية الرواة تصحبح يقينا .

وأما من يريد تفسير الآية الكريمة ، بمعنى أن اقتربت الساعة . . أى أن الساعة تقترب . . وينشق القمر آية لها . . فنحن لا نستطيع أن ننفى أن ذلك يمكن أن يحدث . ومادام الله سبحانه وتعالى يقول : « اقتربت » فإننا لابد أن نعرف يقينا أنها اقتربت . . ذلك لأن الله حين يخبرنا بشىء مستقبلى فهو يقين إيمانى .

أتى أمر الله فلا تستعجلوه

وهنا ننبه إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(سورة النحل - الآية ١)

.. كيف يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ أتى ﴾ .. ثم يقول « لا تستعجلوه » .. مادام قد أتى .. أى قد حدث وتم .. فكيف لا نستعجله ؟

نقول لمن يحاول أن يستخدم مثل هذا الاختلاف الظاهرى بين الألفاظ أن الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن أمر مستقبلى ، فإنه يتحدث عنه بأنه قد وقع وتم فعلا .. ولا يستطيع أحد من خلق الله ، ولا قوة غير الله ، أن تتحدث عن المستقبل فى صيغة الماضى .. لماذا ؟

إذا تحدث عن شىء سيقع فى المستقبل ، فلابد أن يتحدث عنه كشىء مستقبلى .. فالانسان لا يملك القدرة ولا القوة ليضمن حدوث الشىء .. فهو لا يملك البقاء على قيد الحياة ، حتى يأتى موعد وقوع الشىء .. وهو لا يضمن أن قوته ستمكنه من عمل هذا الشىء ، حتى إذا بقى على قيد الحياة .. وهو لا يضمن الظروف التى قد تكون سائدة فى هذا الوقت ، حتى يقع هذا الشىء أو لايقع ..

فقد يأتى شى ما خارج عن إرادة الانسان يمنع حدوث ما وعد الانسان بأنه سيحققه .. ونحن لا نملك المستقبل .

ولكن الله سبحانه وتعالى حى لا يموت .. قاهر فوق عباده .. لا أحد يستطيع أن يمنع حدوث أمر الله .. فإذا حدث الله سبحانه وتعالى عن المستقبل بصيغة الماضى ، فإنه لا محالة حادث .

إذن فإن المستقبل بالنسبة للبشر يصح أن يكون أو لا يكون .. ولكن الأخبار من الله القادر على قوله .. يكون قد وقع بمجرد اخبارنا به .. وإن لم يكن نراه أو نشهده .

والذين يقولون انشق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والذين يقولون سينشق القمر عندما تقترب الساعة .. نقول : إن كلا القولين غير متعارض ، فالقمر قد انشق .. والقمر سينشق مرة أخرى .

أحـداث يوم القيـامة

ونأتى إلى ما جاء فى القرآن عن أحداث يوم القيامة .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(سورة الزمر ـ الآية ٦٨)

وقوله تعالى :

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾

(سورة القمر ـ الآية ٧)

هاتان الآيتان وآيات غيرهما تخبرنا كيف سيخرج الناس من قبورهم . . فنحن نأتى إلى الدنيا تباعا . . أى فردا فردا . . ولكننا حين نبعث فى الآخرة . . فإننا نبعث مرة واحدة ، أى نقوم جميعا فى لحظة واحدة . . حينئذ يصبح هناك ازدحام شديد . . لأن أهل الأرض كلهم منذ بداية الخلق قد خرجوا من قبورهم دفعة واحدة . . والله يريد أن يقرب لنا هذه الصورة بشىء يحدث أمامنا فى الدنيا . . فيشبه هذا الازدحام بالجراد . . عندما يأتى يكون هناك ازدحام رهيب . . بحيث لا تستطيع أن تميز بينه كأفراد . . بل يكون كأنه غمامة لا تستطيع أن تميز بين فرد وآخر . . ويحجب الازدحام الشمس ، ويصبح الأفق مظلما . . ولا أحد يستطيع أن يميز فى وسط الزحام . . بل أفواج تلو أفواج . . هذه احدى صور يوم الحشر .

والناس سيخرجون من نفس الأرض التى دفنوا فيها . . وبعد خروجهم . . يساقون إلى أرض الميعاد . . فتتبدل السموات غير السموات . . والأرض غير الأرض . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(سورة ابراهيم ـ الآية ٤٨)

.. وهذا القول لا يعارض قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

(سورة الأعراف ـ الآية ٢٥)

لأن الناس سيخرجون من هذه الأرض .. سيبعثون منها .. ثم بعد ذلك يساقون إلى أرض الميعاد التى سيتم فيها الحساب ..

والأرض التى نعيش عليها هى معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث .. ومدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم .. ولأنه فى الحياة الآخرة تنتفى الأسباب .. لا تصبح هذه الأرض التى نعيش عليها صالحة .. فقد أدت مهمتها فى استيعابها الحياة الدنيا .. ثم انتهت هذه المهمة بيوم البعث .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى بعد أن يخرج الانسان إلى أرض الميعاد .. فإن تلك الأرض التى كان مطمورا فيها أسباب الحياة .. ومطمورا فيها أقوات البشر انتهت مهمتها .. فالرزق فى الآخرة سيأتى من الرازق مباشرة . وليس بالأسباب ..

هل سنخرج ونمضى ؟!

ولكن هل سنخرج ونمضى هكذا بدون أن نكون غايتنا محددة . . وهل كل واحد فينا يستطيع أن يذهب إلى أى مكان يريده وعلى هواه . . هذا يتأخر وهذا يتقدم . . وهذا يذهب يمينا ، وهذا يذهب يسارا . . وهذا إلى الخلف . . وهذا يزاحم من الخلف ليتقدم الصفوف .

لن يحدث هذا أبدا . . فلقد انتهت أهواء النفوس ورغباتها . . وأصبح كل واحد منا خاضعا لأمر الله مباشرة . . لقد انتهى الاختيار فى افعل ولا تفعل . . انتهت فترة الامتحان . . ولم يعد أحد قادرا على ألا يفعل إذا قال الله افعل . . أو أن يفعل إذا قال الله لا تفعل . . فهذا الاختيار كان ممنوحا للبشر فى الحياة الدنيا لحكمة . . وهو أن يكون كل انسان شهيدا على نفسه . . وان يختار الانسان طريقه بإرادته ليكون الحساب عدلا . . ولكن هذا انتهى اليوم . فلم يعد لأحد حرية ليختار ما يريد . . بل أصبح الأمر كله لله .

انظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى :

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ ﴾

(سورة ق ـ الآية ٢١)

. . ما هو السائق ؟ . . السائق هو الذى يسوق الغنم إلى

المرعى . . ومكانه دائما خلف الغنم حتى يصحح مسارها . . فإذا انحرفت يمينا أسرع هو ليعدل مسارها . . وإذا انحرفت يسارا أسرع ليعدل مسارها . . إذن لكل انسان من يسوقه إلى مكانه يوم القيامة . . يسوقه إلى أرض الميعاد ، إلى الحساب .

المؤمن الذى عرف أن مصيره النعيم سيمضى وهو مسرور مبتسم . . ولكن الكافر الذى عرف أن مصيره إلى النار . . كلما توقف فإن هذا السائق الذى وراءه يدفعه إلى الأمام إذا حاول أن يتجه إلى أى اتجاه آخر . . فإن هذا السائق سيدفعه إلى مساره . . لأنه لا يقوده ، أى لا يمشى أمامه . . ولكنه يسوقه ، أى يمشى خلفه ، حتى لا يفلت منه ، ويكون أمام نظره دائما . . حتى إذا حاول أن يقف أو يتوقف يدعه دعا إلى أن يوقفه فى مكانه .

أما معنى قول الله سبحانه وتعالى « وشهيد » . . فإن الانسان يكون معه شهيد من نفسه ، وشهيد من صحيفة عمله . . بل ان جوارحه تشهد عليه يوم القيامة . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور ـ الآيات ٢٤)

. . إذن فكل انسان سيكون معه كتابه ، ومعه الشاهد عليه . . ويقف الناس لرب العالمين . .

وعرضوا على ربك صفا

وحينئذ يبين الله سبحانه وتعالى لنا :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ٤٨)

وهنا يلفت انتباهنا قوله تعالى (صفا) . . هل سيقف الخلق جميعا من عهد آدم إلى يوم القيامة صفا واحدا ؟ . . وكم سيبلغ طول هذا الصف ؟ . . وأى مكان يتسع لكل هؤلاء الخلق من بدء الخليقة حتى نهايتها ؟

نقول إن المعنى أن يكون ذلك . . وأن قدرة الله تستطيع أن تخلق المكان . . وأن كل هؤلاء جميعا يقفون صفا واحدا . . والله قدرته لا تفوقها قدرة ، وكونه بلا حدود .

وقد يكون المقصود من الآية هو أن لن يفلت واحد من الله سبحانه وتعالى . . ذلك أنك إذا أوقفت الناس أمامك صفوفا . . فإن الذى تراه وتلحظه جيدا ، وتراقب كل حركاته ، هم الموجودون فى الصف الأول . . أما أولئك الموجودون فى الصفوف : الثانى والثالث والرابع والأخير ستكون ملاحظتك لهم أقل ، بحيث يستطيع أى واحد منهم أن يتوارى فيمن هم أمامه . . ويفعل شيئا لا تراه أنت . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن أحدا من خلقه لن يستطيع أن يفلت ، ولو ثانية ، من مراقبة الله له . . وكأنهم جميعا واقفون صفا

واحدا . . لا يمكن لواحد منهم أن يتوارى فى شىء . . لأن كلا منهم لن يستطيع لا الافلات ، ولا حتى مجرد الاتيان بحركة ولن يتجاوز أحد منزلته . . بل سيلزم مكانه فى الصف . . مكانه الذى حدد له بعمله فى الدنيا . . بالطاعة واتباع منهج الله .

كما خلقناكم

ومعنى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ٤٨)

ان الحياة التى نثرت فى أزمان مختلفة عادت لأصحابها فى هذا المكان . .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾

(سورة هود ـ الآية ١٠٣)

ومعناها أيضا أنكم تركتم كل ما كان لكم فى الحياة الدنيا من مال وجاه وعزة وعزوة .

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ٤٨)

.. بدون أى قوة تمنعكم منا .. أو عصبة تدافع عنكم .. أو مال يشفع لكم .. وليس معكم شفعاؤكم الذين كنتم تعتقدون فى الحياة الدنيا أنهم سينفعونكم فى هذا اليوم .. ولا آلهتكم الذين عبدتموهم من دون الله .

والمعروف أن كل إنسان فى الحياة الدنيا قد يكذب على نفسه .. فقد يعتقد زيفا فى أن هناك من سينفعه ، أو سينقذه من العذاب يوم القيامة .. وقد يعتقد زيفا أنه قد يستطيع أن يفلت ، أو أن عذاب الله سيكون يسيرا عليه ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .. أو قد يقول نؤجل التوبة حتى أكبر ، ولكن بعد ذلك لا يمهله الأجل .. أى أن كل انسان قد يكذب على نفسه فى امتدادات الأمل .. وهذا حادث فى الحياة الدنيا .. فكل انسان لديه آمال كثيرة قد لا تتحقق أبدا .. ولكنه يعيش على أساس أنها ستتحقق .. ولكن هذا معناه الأمل الكاذب .. أى الأمل الذى لن يتحقق .. ولكن إذا أصبحت المسألة واقعا .. حينئذ لا يكون هناك أمل .. بل يصبح هناك واقع فقط ، كما سيحدث فى الآخرة .

وإذا أردنا أن نضرب لهذا مثلا ، ولله المثل الأعلى . نقول : هب أن طالبا أخذ يمنى نفسه بالأمل الكاذب .. ويقول لنفسه أنه ليس من الضرورى أن أحضر محاضرة ؟ فأنا فاهم .. وليس من الضرورى أن أسمع الأستاذ . فأنا سأقرأ الكتاب .. ويظل هكذا إلى أن يأتى يوم الامتحان فيجد نفسه راسبا .

هكذا الانسان فى الحياة الدنيا . . يقصر فى تطبيق منهج الله فيقول : أنا لن أصلى اليوم ، ولكنى سأصلى غدا . . لن أؤدى الزكاة هذا العام ، ولكنى سأؤديها فى العام القادم . . ويظل هكذا يهمل فى تطبيق المنهج إلى أن يأتيه الأجل . . حينئذ يجد نفسه أمام الحساب ، وأمام الجزاء ، بدون أن يكون قد استعد لهذه اللحظة . . بل غرته الأمانى فى حياته الدنيا .

الشيطان الذى استغل الانسان ، وقعد له فى كل طريق مستقيم . ووسوس له فى الدنيا . . وزين له أن يترك الصلاة اليوم على أساس أنه سيصلى غدا . . وأن يترك الزكاة إلى العام القادم . . إلخ . . يأتى يوم القيامة فيحاول أن يهرب من المسئولية . . فيقول انه لم يكن له سلطان على عباد الله ليقهرهم على المعصية .

والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر . . ذلك بأن أقيد إنسانا ثم أقوده إلى حيث أريد . . أو أقيده ، ويحمله أعوانى إلى المكان الذى أريده . . أو يكون السلطان هو سلطان الحجة . . بحيث يقنع الانسان ليفعل ما يريده الشيطان . . إذن فالسلطان إما قوة قهر افعل بها أنا ما أريده بك . . أو سلطان حجة وإقناع يجعلك أنت تفعل ما أريده ، ولكن باختيارك . . والشيطان لم يعط سلطان القوة ، ولا سلطان القهر . . أى أن الشيطان ليس عنده حجة ليقنع . وليس لديه سلطان قوة ليقهر . . ولكنه وجد فى داخل الانسان هو ورغبة للمعصية فزينها له . . فلا يقول أحدكم اليوم : انه مقهور لأن الشيطان لا يستطيع أن يقهركم على المعصية ، أو حتى يقنعكم بها . .

وكل إغواء الشيطان للنفس البشرية ، هو شهوات هذه النفس التى تريدها ، يزينها لها .

ودعوى الشيطان كاذبة . . ونحن نعرف أنها كاذبة . . وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك فى إغواء الشيطان لآدم . . وقد قال الشيطان لآدم :

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

(سورة طه - الآية ١٢٠)

. . أى أنه وعده بالخلود والمال الذى لا يفنى . . ولم يأخذ آدم إلا المعصية والطرد من الجنة . . ولكن رغم اننا نعرف كذب الشيطان . . فإن إغواءه يصادف هوى فى نفوسنا فنصدقه . . ويقول الشيطان فى هذا الموقف الذى تخلت فيه الدينا عن الانسان العاصى . .

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢٢)

. . أى أن الشيطان يقول : أنا لا أستطيع أن أنجيكم من العذاب اليوم . . ولا أنتم تستطيعون أن تنجونى منه . . لأن الصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الانسان على مواجهتها بمفرده . فإذا شب فى بيت إنسان حريق . . فإما أن يستطيع أن يطفئه بنفسه ،

فلا يصرخ طالبا النجدة ، وانما يقوم بإطفاء الحريق . . وأما إن كانت النار أقوى منه ومن قدراته ، فإنه فى هذه الحالة يصرخ طالبا النجدة . . لأنه يواجه حدثا أقوى من قدراته .

وإذا هاجم الانسان لص ، فإنه إذا كان يقدر عليه واجهه . . أما إذا لم يكن يقدر عليه . . كان يكون اللص أقوى منه . . فإنه فى هذه الحالة يصرخ طالبا النجدة .

حين يسمع الناس الصراخ ، فهم نوعان : نوع لا يجد فى نفسه المقدرة ، فلا يذهب إلى الصارخ لينجده . . ونوع آخر يجد فى نفسه المقدرة فيذهب وينقذه ، وحينئذ يقال : أصرخه فلان ، أى أزال سبب صراخه .

ولكن الشيطان يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحدا . . لا يستطيع أن ينقذ أحدا من العذاب . . ولا يستطيع أحد أن يصرخه ، أى ينجيه من العذاب . . يقول الشيطان للعاصين .

﴿ مَآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢٢)

وخشعت الأصوات للرحمن

ولهذا يعطينا الله سبحانه وتعالى صورة دقيقة يوم الحساب فيقول :

﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

(سورة طه - الآية ١٠٨)

ولقد ألفنا فى الدنيا انه ساعة أن يكون هناك حساب أو محاسبة . . فإن الأصوات تعلو . . وكل واحد يجادل بقوته وصياحه . . كذلك ألفنا أن الانسان ذا القوة والنفوذ عالى الصوت دائما . . ومعنى علو الصوت هنا أنه يستطيع أن يحقق ما يريده . . ذلك هما المعنيان المادى والمعنوى لأن تقول : فلان صوته عال . . وفى أحيان كثيرة تقول سنرى أيا منا أعلى صوتا ، أى أكثر قدرة على تحقيق ما يريد .

وعلو الصوت المادى يبين أن صاحبه قوى ، أوكما يقولون (مسنود) . . فالانسان يعلو صوته عندما يحس بالقدرة . . ولكنه إذا كان مسكينا مغلوبا على أمره ، فإنك تراه يقف ذليلا لا يستطيع صوته أن يتجاوز أمتارا قليلة .

فلو أخذنا علو الصوت على أساس مادى . . أى أنه يمثل قوة ساعة المجادلة أو المحاسبة . . أو أخذناه على أساسه المعنوى . . أى أنه يمثل القدرة على قضاء ما يريده . . فكلا الأمرين سيختفى فى الآخرة . . فلا يستطيع انسان أن يعلو بصوته على غيره مهما يكن هذا الانسان قويا فى الدنيا ، والآخر ضعيفا فيها . . لأن ارتفاع الصوت إعلام

بمدى ظهور ذلك المستعلى بصوته على الآخر . . إذن فستكون هناك مساواة كاملة . . فلا يوجد قوى دنيوى يستطيع أن يعلو بصوته على ضعيف دنيوى . . ولا سيد يستطيع أن يعلو بصوته على من كان يستعيدهم أو يسيطر عليهم . .

وهكذا تخشع الأصوات كلها ، فلا يوجد تمييز دنيوى بين الناس . بل تختفى كل الميزات فى الآخرة ، ونصبح جميعا مستاوين . . أمام الله سبحانه وتعالى .

ويقال : خشعت الأصوات من هول الموقف أمام الله . . ذلك أننا حين نقف أمام الله منتظرين الحساب . . فإن هول الموقف يجعل الأصوات تخشع . . ونحن فى الدنيا حين نقف أمام رئيس دولة ، أو حاكم . . فإن كنا نريد أن نتحدث مع بعضنا البعض ، نتحدث همسا ، أو بصوت خافت مناسب للموقف الذى نحن فيه . . فكيف إذا كان الوقوف بين يدى الله . . حينئذ فى هذه الحالة لا يجرؤ ملوك الأرض ، وأعتى العتاة فيها وجبابرة على النطق إلا همسا .

هل سيحدث كلام ؟

ولكن هل سيكون هناك كلام وحديث بين الناس يوم القيامة ؟ . . الجواب عن ذلك : نعم . . ولذلك سمى يوم القيامة . يوم التناد حيث ينادى بعض الناس أولئك الذين أضلوهم فى الحياة

الدنيا .. طالبين منهم أن يدفعوا عنهم العذاب ، أو شيئا من العذاب ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة البقرة ـ الآيتان ١٦٦ و ١٦٧)

.. وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

(سورة ابراهيم ـ الآية ٢١)

ومن هنا نعلم أنه سيكون هناك جدل بين الكفار وبين الذين اتبعوهم .. وأن الكفار سيتبرأون من الذين اتبعوهم .. بل انه سيكون هناك حوار بين المؤمنين وغير المؤمنين ، وهم يساقون إلى أرض الميعاد .. ينبئنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الحديد - الآيتان ١٣ - ١٤)

بل انه سيكون هناك حوار أو كلام بين أهل الجنة وأهل النار مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ٥٠)

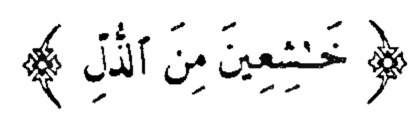
وكل هذا سنتعرض له بالتفصيل فى الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله ، ذلك أننا فى هذا الفصل نحاول أن نعطى صورة لوقوف الناس بين يدى الله قبل الحساب .

ولتكتمل الصورة لابد أن نلقى الضوء على بعض الجوانب بالنسبة لما سيحدث فى هذا اليوم العظيم .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ١٠٦)

أى أن وجوه المؤمنين ستكون متلألئة بالنور ، بيضاء مليئة بالسرور . . بينما تكون وجوه غير المؤمنين مليئة بالانقباض ، سوداء مما ينتظرها من الهم والعذاب . . ويوضح الصورة أكثر قول الله سبحانه وتعالى :



(سورة الشورى - الآية ٤٥)

وذلك يرينا كيف أن الكفار والعاصين فى يوم القيامة سيشعرون بذل رهيب بعد أن كانوا فى الدنيا يملؤهم الكبر والكبرياء بما كانوا فيه من نعمة وجاه . . ولكنهم فى يوم القيامة ذهبت عنهم وسائل كبريائهم الدنيوى ، وانتهت تماما وسائل صلفهم ، ووسائل غرورهم ، وأصبحوا أمام الله لا تحيط بهم إلا ذنوبهم . . وهكذا يغشى وجوههم الذل .

يوم تولون مدبرين

ولتصوير ما سيحدث بصورة تقربه إلى الأذهان حتى لا يأتى أحد مجادلا يوم القيامة . . ويقول : يارب لو أنك أخبرتنا بصورة

ما سيحدث لكنا آمنا .. ولكنك يارب لم تخبرنا .. يعطينا الله سبحانه وتعالى صورا كثيرة لهذا اليوم فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾

(سورة غافر - الآية ٣٣)

.. ويقول الحق جل جلاله ..

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

(سورة التكوير - الآية ٢٦)

.. ومعنى ذلك أن غير المؤمنين حين يرون هذا الهول الكبير يتمنون أن يهربوا من الله سبحانه وتعالى .. ولكن هل يستطيع إنسان مهما هرب . أن يهرب من الله ؟ .. وإلى أين يذهب ؟ والملك كله ملك الله .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

وتكتمل الصورة أكثر بقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان - الآية ٢٧)

.. أى أن الله سبحانه وتعالى يكون قد بين لنا الفرق بين صورة الظالم وصورة الكافر .. فالظالم هو الذى آمن . ولكنه ظلم نفسه بالمعصية .. ولذلك يعض على يديه من ندم ، لأنه يعرف أن عذابا شديدا ينتظره .. أما الكافر فيعرف أنه خالد مخلد فى النار ويرى النار وهولها .. وحينئذ يتمنى لو أنه لم يكن مخلوقا من البشر .. بل كان جمادا لا يملك فكرا ولا إرادة ، لأن فكره أضله .. وإرادته قادته إلى النار ليخلد فيها .. وهو يعرف أنه لن يخرج من النار .. وحينئذ يتمنى لو أن لديه ملء الأرض ذهبا ، ومثله معه ، فهو مستعد لأن يضحى بهذا المال كله لينجيه من العذاب .

وهذه الصورة تعطينا مدى استعداد الانسان لأن يفدى نفسه من العذاب بأى شىء .. ذلك أن المال هو العزوة فى الدنيا .. والانسان يحرص على ماله فى الدنيا ، ويحرسه ، ويدافع عنه أحيانا بحياته .. ولكن هذا المال الذى له هذه القيمة الكبيرة فى الدنيا يكون فى الآخرة عديم القيمة . والله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هول العذاب وتأثيره على نفوس البشر ، حتى إن الانسان يكون مستعدا أن يضحى بأى شىء .. بماله وبأولاده وبكل ما كان يعتز به فى الحياة الدنيا ، لينجو فى الآخرة .

ومع أن هذه الصورة قد أعطيت لنا فى القرآن الكريم ، وقرأناها ونحن فى الحياة الدنيا .. وكان من الواجب أن تجعلنا نفزع ونفر إلى الله ونتبع منهجه .. ونلتصق بهذا المنهج حتى ينجينا الله من

العذاب ، فإن كثيرا من الناس يسمع وصفا لهذه الصورة فى القرآن الكريم .. فلا يهتز قلبه ، لأن العذاب محجوب عنا فى الدنيا .. ولو أن واحدا منا رأى عذاب الآخرة لامتنع عن كل المعاصى الدنيوية ..

يبقى بعد ذلك استكمال الصورة التى رسمها القرآن الكريم بالنسبة ليوم القيامة .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

(سورة طه - الآيتان ١٢٥ - ١٢٦)

وقوله تعالى :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(سورة الأعراف - الآية ٥١)

وقول الله سبحانه وتعالى « أعمى » يمكن أن يكون معناه العمى الدنيوى ، لأن الكافر يوم القيامة ستحيط به ظلمات ذنوبه ، فلا يرى شيئا ويمشى يتخبط .. ويمكن أن يكون معناه أيضا العمى المعنوى ، وذلك من سوء ما ينتظره يوم الحساب .. يتخبط كالأعمى تماما .. فأحيانا يأتيك خبر فى الدنيا ، ويكون هذا الخبر سيئا ، فتقول أنا لم

أعد أرى شيئا وتمشى وأنت تتخبط . . ومعناه أيضا أن المسائل تختلط على الكافر بسبب هوى النفس الذى كان يتبعه ، فلا يستطيع نظره أن يميز شيئا ، فيمشى وهو يتخطبط .

واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة « ننساهم » ليس معناه أن الله سينسى الظالم فى الآخرة . فلا يحاسبه . . ولكن الله ينساه من موجبات رحمته فلا يرحمه . . ويظل الكافر والظالم يستغيثان . . ولكن الله لا يستمع إليهما . . كذلك ينسى الله سبحانه وتعالى الكافر من موجبات عفوه يوم القيامة ، فلا يعفو عنه أبدا ، ويظل خالدا فى النار . . ذلك أن هؤلاء الناس تابوا على منهج الله فى الدنيا ونقضوه ولم يعملوا به . . فكيف يريدون عفو صاحب المنهج فى الآخرة ؟
وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾

(سورة الزمر - الآية ٦٩)

بأنه لن تكون هناك شموس ولا نجوم ولا أقمار ، ولكن نور الله سيأتى مباشرا إلى خلقه ينير كل شىء .

إلى هنا ونصل إلى نهاية هذا الجزء من الكتاب ـ على أن يكون الجزء الثانى ، إن شاء الله ، عن ساعة الحساب . . وكيف سيتم ، والله يوفقنا لما فيه الخير والسداد .

المحتويات

رقم الإيـداع : ٣٣٢٩ / ٩٣

الترقيم الدولى / I. S. B. N.

977 - 08 - 0175 - 5